obeikandl.com

## القسم الثالث

# ....وأوراق أخرى

obeikandl.com

## بماذا أخبرتنى التماثيل فى القاهرة ولندن؟!

## حالة تصالح

تماثيل العظماء.. العباقرة.. الموهوبين فى كل بلد، ليست أصنامًا تطوف حولها المواكب لتحرق البخور، وترفع الأدعية وتستمطر اللعنات.

إن المثل الأعلى الكلاسيكى الذى تجسده هذه التماثيل، لا يجلس متربعًا فى مرتبة القداسة لنهلل له: (اعل هبل)، ولكنه ذكرى، وإلهام لكل أبناء الأجيال الطالعة، كيما يتمثلون العبر والمعانى، وكيما يفهمون ـ فى حالة المجتمعات السوية والصحية ـ أن هناك سيادة حقيقية (للمعايير) التى تجعل من أصحاب هذه التماثيل قيمة عظمى فى حياة أوطانهم وتاريخها، وأن الموهوبين والعباقرة والوطنيين المخلصين لن يذهب إسهامهم إلى مزبلة التاريخ، ليتنطع الميديوكراتية والجهلاء والخونة فى أوسع المساحات تحت الضوء، وليصبحوا تماثيل بشرية ـ من لحم ودم ـ لغياب المعايير فى كل المجالات!

.....

وحكاية مصر مع التماثيل معقدة، وقديمة، تبدأ بتحطيم تماثيل ونصب ومسلات الفرعون عند وفاته، وعلى يد خصومه، والشاعرين بالإحن عليه، وتنتهى بإخضاع هذه التماثيل لمقاييس سياسية فى العصر الحديث، تنقل وتستبعد ـ على الفور ـ أى تمثال ليس على كيف أو هوى أو مزاج صاحب القدرة، أو مالك السلطة!

والمعنى ليس بعيدًا، أو صعبًا، إذ إنه ما يرتبط بالقدرة على التصالح مع التاريخ، والتسامح مع الخصوم السياسيين والفكريين، بحيث يظل التاريخ ـ فى النهاية ـ هو التاريخ، لا يأتيه الهوى أو الغرض من بين يديه ولا من خلفه،

وبحيث لا يكتب بيد المنتصر صاحب الموقف أو الرأى الذى حسم معطيات الواقع لصالحه فحسب، ولكنه يكتب بيد الأمة بحيث تضع كلاً فى حجمه، وتبرز كل حدث فى سياقه

ولكم تمنيت لو استطاع المجتمع السياسى والثقافى فى مصر أن يتصالح مع التاريخ، ويتسامح مع خصومه، وأن يعكس فى سلوكه ومواقفه ما يمكن اعتباره على قدر مقام البلد، وعلى قد مقام الشعب، إذ ليس من المشرف أن تختفى تماثيل محمد على باشا الكبير مؤسس الدولة الحديثة فى مصر، أو سليمان باشا الفرنساوى أحد الذين أسهموا فى تأسيس وتدريب الجيش المصرى.. أو الخديو إسماعيل باشا مهندس النهضة الحضارية الحديثة.

كما ليس من المشرف أن تبقى عاصمة مصر بلا ميدان أو تمثال لجمال عبد الناصر، أول حاكم مصرى لمصر بعد مئات السنين، أو أنور السادات بطل الحرب والسلام، أو قادة حرب أكتوبر ١٩٧٣ الذين بعثوا الأمة العربية قادرة على الحياة والحركة بعد طول موات!

إى نعم..

هناك حالة واحدة ـ تتوافق مع هذا المعنى ـ يمثلها محافظ الإسكندرية محمد عبد السلام المحجوب، حين أعاد تمثال الخديو إسماعيل إلى موقعه، إلا أنها تظل حالة فردية تعبر عن ذهن مستنير، وتفكير يتعامل مع تاريخ الوطن كسياق كامل، وليس كفقرات مستقلة، أو (بالقطعة) إذا جاز التعبير.

وهذه حالة ـ مع كثير الأسف ـ لا تخلق تيارًا، وإن كانت تلهم ـ من شاء أن يفكر ـ بالمعنى الصحيح، وبالمكون الوطنى، والمكون الأخلاقى فى هذا المعنى.

إن ما يخلق (التيار) بالفعل، هو التربية والتنشئة فى البيوت والمدارس، قبل الأحزاب والاتحادات، وبغيرها يبقى الوضع على ما هو عليه فيما يخص إنكار المعايير وغيابها، وتسييد قيم الجهل وقلة الموهبة، وإحلالها مكان رموز العبقرية

والوطنية.. فالأولى تماثيل حية من لحم ودم، والثانية نصب ماتت من صخر وبرونز!!

.....

وقبل أن يحاجنى أحدكم كالعادة بأن المقارنة بين مصر وبريطانيا لا تجوز، لأن هذه وحدات غير متكافئة، أجيبه مقدمًا أننى ـ هنا ـ بصدد المقارنة حول قيم أخلاقية، وأظن أنها تجوز، وإلا كان معنى ذلك أننا غير متكافئين مع الدنيا معنويًا وأخلاقيًا أيضًا.. ومن ثم سأقارن، وأقارن، وأحدثكم عما أخبرتنى به هذه المقارنة بين تماثيل الشوارع فى لندن وفى القاهرة!

.....

التمثال الأول الذى سأتوقف عنده هو تمثال أوليفر كرومويل الواقف أمام مبنى البرلمان الإنجليزى العتيق فى وستمنستر، وكأنه حارس مجلس العموم الذى لا تغفل له عين!

وكرومويل ـ ببساطة ـ هو المتمرد الأول ضد الملكية فى بريطانيا!!!

وكان كرومويل نائبًا فى البرلمان، وقد بدأت الخلافات بينه وبين الملك تشارلز الأول، لأسباب دينية تتعلق بدور القساوسة، وعلاقة الإنسان بربه، وفى نوفمبر ١٦٤١ قدم مجموعة من نواب البرلمان إلى الملك تشارلز ما عرف باسم «مذكرة الاحتجاج» الكبرى التى تألفت من ٢٠٠ بند بينها مراقبة القساوسة، وأعلن كرومويل أنه إذا لم يقبل مجلس العموم هذه المذكرة، فإنه سيبيع كل ما يملك ويغادر إنجلترا ولن يراها بعد ذلك، ولم يقبل الملك المذكرة، وحاول من دون نجاح اعتقال خمسة من الذين قدموها بتهمة الخيانة العظمى لم يكن كرومويل بينهم.

وفى عام ١٦٤٢ بينما كان تشارلز يحاول حشد جنود لجيشه، وكانت البلاد تتجه إلى حرب أهلية، نجح كرومويل فى الحصول على موافقة مجلس العموم

لتكوين سرايا دفاع فى دائرته كمبردج، ومنع زملاءه من المشاركة فى جمع التبرعات للملك.

وفى عام ١٦٤٣ شارك بفاعلية فى قوات البرلمان المقاتلة للملك، ونجح فى صد القوات الملكية مرات عديدة، وبعد انتصار قوات البرلمان عام ١٦٤٦، حاول مجلس العموم حل القوات البرلمانية، مما أغضب كرومويل الذى غادر لندن عام ١٦٤٧.

ثم اندلعت الحرب الأهلية فى الجزر البريطانية مرة أخرى عام ١٦٤٨ بين الملكيين والبرلمانيين، وتمكن كرومويل من دخول إسكتلندا، واستعادة النظام فيها، وعاد إلى إنجلترا ليتولى مراقبة الملك الذى كان قد جرى اعتقاله، وجرت محاكمة الملك، وكان كرومويل ضمن ١٣٥ مفوضًا فى محكمة العدل العليا، وعندما رفض الملك تقديم طلب بالعفو، صدر حكم ضده بالموت، وأعدم..

وبعد إعلان الجزر البريطانية جمهورية، أصبح كرومويل الرئيس الأول لمجلس الدولة، وأصبح لديه سلطة مطلقة عام ١٦٥٣.

.....

نحن إذن أمام ثائر متمرد ضد الملكية، صدق على حكم بإعدام الملك، وأعلن الجمهورية.

ومع ذلك له أحد التمثالين أمام مجلس العموم: الأول لريتشارد قلب الأسد، والثانى لكرومويل.. فلماذا؟!

هذا لأننا فى بلد متصالح مع تاريخه،يرى فى كرومويل رمزًا للدفاع عن البرلمان، والبرلمان هو درة الحياة السياسية، بل ودرة الحياة العامة فى بريطانيا، لا يهم فى ذلك إذا كان ضد الملكية أم لا، إذ أن الفيصل هو دوره الذى قام به من أجل البلد ومن أجل الشعب، ومن أجل محاربة فساد رجال الدين، والحفاظ على مؤسسة الحكم مستقلة غير خاضعة إلا للشعب.. وإلا للناس.

هل تتفقون معى؟...

أظنكم تتفقون!!

التمثال الثانى هو تمثال وليم هوجارث ـ الذى عاش منذ العاشر من نوفمبر لعام ١٦٩٧، وحتى السادس والعشرين من أكتوبر لعام ١٧٦٤ ـ وموقعه أحد الأركان فى ميدان ليستر فى الوست إند، وقد أبدعه المَثّال جوزيف سنة ١٨٧٥.

ووليم هوجارث هو أبو الكاريكاتير الإنجليزى، وقد تلقى تدريبه الأول كحفار، ثم أصبح فنانًا مصورًا، أنتج مئات الرسوم التى تصور الحياة اليومية، والأعراف السائدة فى بريطانيا فى القرن الثامن عشر.

وهوجارث يوصف بأنه «تشارلز ديكنز» الكاريكاتير، لأنه برع فى إبراز تفاصيل الحياة فى المناطق الفقيرة، وتفاصيل السلوك الخارق للتقاليد وسط معاصريه، فى لوحات مثل طريق الخليع (١٧٣٢)، وأوبرا الشحاذ (١٧٢٨)، وسلسلته الخالدة (مراحل القسوة الأربعة) التى صور فيها نصًا للكاتب بن جونسون فى عشرات اللوحات!!

ولكن هوجارث اكتشف فى نفسه ـ فجأة ـ ميلاً لتغليب عنصر المبالغة.. ولظهور نزعة تهكمية ساخرة فى رسومه؛ بدأ من رسم يعرف باسم (قضاة وستمنستر).. وفى آخر رسومه، فى آخر يوم من حياته كتب يؤكد الأهمية الخاصة التى يراها فى رسومه الساخرة، والتى لا تقل ـ أبدًا ـ من حيث المكانة عن لوحاته التصويرية الأخرى.

واسم هوجارث يرتبط بمعنى أصبح له ترديد معاصر كثيف هذه الأيام، وهو (حقوق الملكية الفكرية)، إذ تعرضت أعمال هوجارث للكثير من عمليات القرصنة والسطو عليها، ونسبتها إلى آخرين، ومن ثم فقد كانت شكواه سببًا أساسيًا فى صدور قانون حقوق النشر عام ١٧٣٢، وهو القانون الذى اشتهر وعرف باسم: (قانون هوجارث).

وفوق هذا التمثال الجميل فى ميدان ليستر، فإن متحف وليم هوجارث الموجود فى ضاحية شيزيك (فى الطريق إلى مطار هيثرو) يشى ـ كذلك ـ بحجم التوقير والاحترام الذى يسبغه المجتمع البريطانى على شخص وأعمال هوجارث، التى تعد ـ فى أبسط وصف لها ـ وثائق للتأريخ السياسى والثقافى والاجتماعى!!

. . . . . .

أذكر هذا المثل بالذات لأننا لم نكرم قط، ولم نحتفل بعمالقة المشاغبين الفلاسفة، رسامى الكاريكاتير المصريين، أصحاب واحدة من أكثر مدارس هذا الفن المهم تكاملاً.. وأنا حين أذكر هذه الحقيقة أؤكد أنها لا تصدر عن حماس ارتباط شخصى بها، أو بالانتماء إلى سلالة وجذر شديد العراقة فى شجرتها.. وإنما حين أخط سطور هذا الحكم النقدى فإنما أفعل بحكم التخصص الأكاديمى ومن واقع متابعات ومقارنات لمئات الآلاف من وثائق هذا الفن الباسل العظيم.

نعم، لم نحتفل بالمدرسة المصرية للكاريكاتير، ولم نحتفل بالرسوم الساخرة الفرعونية والقبطية التى تثبت أننا أول من استخدم هذا الفن دون إكثار (أى دون طباعة نسخ).

وهذه فكرة أهديها لوزير الثقافة، حيث لم يكرم أحد رسامى الكاريكاتير فى أعياد الإعلاميين أو فى مؤسساتهم الصحفية.. وأظن أن فاروق حسنى جدير بأن يفعلها.

نعم.. نحن نريد حديقة ومتحفًا للكاريكاتير المصرى.

نريد حديقة نرى فيها تماثيل يعقوب صنوع، وصاروخان، وعبد السميع، ورخا، وصلاح جاهين، وأحمد حجازى، وبهجت عثمان، ورجائى ونيس، وجورج البهجورى، وإيهاب شاكر، ومحيى الدين اللباد، وزهدى العدوى، ونبيل السلمى، ومصطفى حسين، وحاكم، و....، و.....

نريد متحفًا فيه اختيارات دقيقة من رسوم الكاريكاتير المصرية، ترصد إسهام المشاغبين الفلاسفة فى أحداث الوطن الكبرى، وفى (وصف مصر) بأزيائها، وأعرافها، وتقاليدها، وناسها، وشوارعها.. نريد متحفًا يصبح - فى ذاته - نصبًا للتسامح، وللدعابة، وخفة الدم، والشجاعة.. وهى قيم أظنها قد تعرضت لاهتزاز شديد فى مصر اليوم.

نريد متحفًا تعرض فيه برديات ساخرة، وأستراكا - وهى قطع صغيرة ولخاف من فخار عليها حفر ساخر - وتماثيل ساخرة ابتداء من العصر الفرعونى وحتى

محمود مختار.

نريد أن تنظم مصر مهرجانًا سنويًا ضخمًا وعالميًا للسخرية والفكاهة والكاريكاتير والنحت الساخر، وأن يكون مركزه هذه الحديقة وهذا المتحف، اللذان يجب أن يزودا بقاعة عرض لشباب «الكاريكاتيريست» أحفاد المشاغبين الفلاسفة.

. . . . . .

هل تتفقون معى؟!

أظنكم تتفقون!!

التمثال الثالث هو تمثال الفيلد ماريشال مونتجومرى، قائد معركة العلمين الشهيرة التى هزم فيها الفيالق الألمانية بقيادة ثعلب الصحراء روميل.

ويحتل هذا التمثال مكانه أمام وزارة الدفاع فى وايت هول (حى الوزارات والسلطة التنفيذية)، وليس غريبًا أن تكرم بريطانيا قادتها العسكريين، فهى تفعل ذلك بدءًا من الأدميرال نلسون قائد الأساطيل الإنجليزية، وصاحب موقعة أبى قير البحرية الشهيرة التى أغرق فيها أسطول الحملة الفرنسية، فى نفس المكان الذى ينقب فيه الغواصون اليوم ليخرجوا بمدفع، أو عدة دانات، أو بعض عملات ذهبية أو فضية.

وأنت تجد تمثال نلسون هذا على قاعدة شاهقة الطول فى ميدان ترافلجار وتحتها أربع أسود (رمز الإمبراطورية) ينظر كل منها إلى جهة من الجهات الأربعة الأصلية، إشارة إلى الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس!

وإلى جوار نلسون ستجد تمثالاً لقائد الحملة البريطانية على الهند، أى أن الاحتفال بالقادة العسكريين سمتًا غالبًا، وموتيفًا ثابتًا لهذا البلد. وواحد من أبرز علامات هذا الاتجاه، تمثال مونتجومرى..

وأنا أشير إلى هذا التمثال لأننى تمنيت كثيرًا أن أرى تماثيل لكبار القادة العسكريين أصحاب نصر أكتوبر، إحياءً للمثل الأعلى الكلاسيكى فى نفوس الناس، وفى عقول وأفئدة النشء.

أعرف أننا أنشأنا بانوراما حرب أكتوبر لهذا المعنى، وأعرف أننا أقمنا نصب الجندى المجهول بالأسماء المصرية التقليدية على جوانب الهرم الذى يمثله، لهذا المعنى أيضًا.. ولكن ما أطلبه فى الواقع هو أمر أكبر من ذلك، أريد حالة احتفال قومية حقيقية بهؤلاء الأبطال.

أريد أن يكون لدينا ما يمكن تسميته (ساحة أكتوبر)، وألا تكون حديقة من عشرين مترًا فى خمسين مترًا، على طريقة عش العصفور الذى يجب أن يكفينا!!

ساحة بمعنى ساحة!

شىء ضخم.. مهابط ومطالع.. نافورات، وأرائك خشبية.. أكشاك تبيع كتبًا عن الحرب وعن أبطالها، وصورًا، ورسومًا، وأجهزة بسماعات توضع فيها العملة، فتستمع عبر السماعة إلى شريط يحكى لك بعض قصص هؤلاء الأبطال.

قادة.. وجنود.. تماثيل مفردة.. وتماثيل جماعية.

عسكر.. ومدنيون بنوا قواعد الصواريخ قبل الحرب.

ساحة تمجد السلام الذى وصلنا إليه تحت أفق مشتعل بالنار، وفوق بحر من الدماء.

.....

هل تتفقون معى؟!

أظنكم تتفقون!!

التمثال الرابع الذى أشير إليه هو تمثال تشارلى شابلن فى ميدان ليستر (١٦ أبريل ١٨٨٩ ـ ٢٥ ديسمبر ١٩٧٧)، وهو ـ كما تعرفون ـ ممثل كوميدى ومخرج ومنتج وموسيقار، ولد فى ولورث فى لندن، وسط عائلة موسيقية، وانضم إلى فرقة رقص للأطفال (أطفال الثامنة فى لانكشير).

وفى سن السابعة عشرة ـ وفى أثناء جولة فى أمريكا ـ انضم إلى شركة سينما ليعمل فيها (ماك سينيى كى ستون كومبانى).

أسلوبه فى التمثيل يتصف بدرجة عالية من الشفقة التى تعد الأسلوب الأكثر وضوحًا فى عصر السينما الصامتة.

أهله نجاحه ليشارك فى تأسيس يونيتيد آرتيستس فى ١٩١٩.

أهم أفلامه (أضواء المدينة).. (الأزمنة الحديثة).. (الدكتاتور العظيم).

وقد أبدع تمثال شارلى شابلن المثال جون دبل داى، وأزاح عنه الستار سير ألف ريتشارد سوف فى أبريل ١٩٨١، والمعروف أنه حصل على لقب سير عام ١٩٧٥.

وكلما ذهبت إلى هذا الميدان ـ الذى كثيرًا ما أذهب إليه ـ أجدنى أردد أنه ليس من المقبول، بل وحتى ليس من المشرف، أن تبقى عاصمة مصر بلا تمثال لنجيب الريحانى، أو عزيز عيد، أو فاطمة رشدى، أو جورج أبيض، أو يوسف وهبى، أو غيرهم من هذه السلالة الفنية الراقية، وحتى نجوم الصف الأول من العلامات اليوم.

بل إنه ليس من المعقول ألا يوجد فى عاصمة مصر تمثال لأحمد بهاء الدين، أو لتوفيق الحكيم، أو لطه حسين، أو لعباس محمود العقاد، أو لإحسان عبد القدوس، أو للدكتور مصطفى مشرفة، أو للدكتور عبد الرزاق السنهورى، أو ليوسف إدريس، أو لويس عوض، أو عبد الحليم حافظ.

وفى هذا السياق ليس من الضرورى أن يكون التمثال للراحلين الأموات، إذ ليس من المفهوم ـ أيضًا ـ ألا نجد تمثالاً لنجيب محفوظ!!

. . . . . .

هل تتفقون معى؟!

أظنكم تتفقون!!

. . . . . .

لقد كانت مصر ـ زمان ـ تعرف الاكتتاب الأهلى لإقامة التماثيل، كما حدث فى تمثال مصطفى كامل الشهير.. ولكن منذ أن أصبح الموضوع فى يد الدولة، أصبح يخضع لحسابات أخرى، وتمييزات أخرى، وتفضيلات أخرى.. وأصبح الموضوع ـ فوق ذلك كله ـ نهبًا لمنطق الاستبعاد والحصار والنفى والعزل والتعتيم

الذى تجيده البيروقراطية السياسية الشريرة لصالح استرضاءات رخيصة لمن يمتلك صولجان السلطة، حتى لو كانت سلطة على مصلحة حكومية رثة، أو كان هذا الصولجان مجرد منصب مدير أو رئيس أو باشكاتب أو ساعى.. أو لصالح الإحساس الإجرامى بالتراخى والاستسلام لخدر الترهل، والنظر إلى تكريم العباقرة والأبطال بوصفه أمرًا لا يعود على أحد بمكسب سريع، ولا يمكن - إذا جعله أحد الأشخاص قضية عمر - أن يدر عليه ربحًا مباشرًا، هذا إذا تم تمكينه - أصلاً - من أن يفعل شيئًا فى هذا السياق.

هكذا أخبرتنى التماثيل فى لندن وفى القاهرة!

كما أخبرتنى أن جزءًا أساسيًا من عبقرية الدولة، وعبقرية الشعب، أن يكونا متصالحين مع كل مكونات تاريخهما، وعارفان معترفان بقدر وفضل كل العناصر المتفوقة والمبدعة التى عاشت على أرض الوطن، وبين أفراد الشعب.

بل إن جزءًا من هذه العبقرية، أن تعبر الدولة، وأن يعبر الشعب عن هذا الإحساس بالفضل تعبيرًا جليًا واضحًا، بحيث تستحضر الأجيال الجديدة فى ذوات أفرادها صورة المثل الأعلى بصفة دائمة، مضيئة ومحفزة، تعكس ارتباطًا بالغد، كما تعكس حالة تصالح مع الخصوم السياسيين والفكريين فى كل سياق من السياقات الزمنية التى تشكل تاريخنا.

هل تتفقون معى؟!

أظنكم تتفقون!!

**٧ مايو ١٩٩٨**

## عن الماء.. والخضرة.. والوجه الحسن

# مذكرة إلى كباريه البيئة فى مصر المحروسة!

التلوث..

كلمة يختلط فيها (الواقعى) و(المجازى)، بحيث يمكنك أن تبدل أحدهما محل الآخر، كلما نطقت بها.. أو استمعت إليها.

نعم..

فتلوث البيئة ليس - فقط - ما يقاس بالأجهزة والنسب المئوية، وبكسور وأعشار المليجرامات، والمليمترات، من انخفاض أو ارتفاع نسبة أول أكسيد الكربون، أو أكسيد النتروجين، أو أكسيد الكبريت، فى الجو والماء، أو فى التلوث الضوضائى، أو البصرى.

ولكن..

تلوث البيئة يبدأ بشيوع قيم الكذب، والنفاق، والكراهية، والحصار، والنفى، والضغط، والعزل، والقهر، والتخلف، والإهمال الإجرامى، أو الإجرام الإهمالى.. وهى - بطبيعتها - قيم تعبد، وتفرش، طريقًا مؤكدًا، وسريعًا إلى (الهزيمة)!

وبمقدار نجاحنا فى تفويت الفرصة عليها فى اغتيالنا، وبمقدار نجاحنا فى حصارها، وتنظيف البلد والنفوس منها، سيكون بمقدورنا أن نهزم (الهزيمة) مرة وراء مرة.. بل وسيكون فى مقدورنا أن نعالج هؤلاء الأحباب الذين يعيشون معنا فى وطن واحد، والذين تمكن منهم داء إدمان الهزيمة، وعشقها، بحيث تفجر فى نفوسهم كل هذا الوجد المشبوب تجاهها، وبحيث أصبحت مرجعية أولى، ومرجعية أخيرة، يستندون إليها فى كل ما يكتبون، ويفعلون، بل ويسيدون كل قيمها، التى تعنى - فى واحد من أبسط أوصافها - التلوث!!

. . . . . .

هذا عن (المجازى).. فماذا عن (الواقعى)؟

الواقعى فيما يخص التلوث، وفيما يخص البيئة، يرتبط - إلى حد كبير - بفكرة (حق المواطن)، وهى فكرة (بلغة لم أتعمد تقعيرها) مازالت تحتاج إلى «تجذير» وإلى «تأطير»، ثم إلى «اعتراف جماعى متبادل بها».

إن (حق المواطن) عندنا لا يدخل فى عملية تشكيل القرار الإدارى أو المحلى بالرأى، والبعض يتخذ من ضآلة القيم التى يتم توزيعها على الناس، مبررًا - فى ظل الحالة الاقتصادية لدولة ليست بغنية - لأن يعتبر أيًا من حقوق المواطن الأخرى - بدءًا من حقوقه فى بيئة نظيفة، إلى حقوقه فى مشاركة سياسية نظيفة- لونًا من ألوان الترف الذى لا ينبغى لعوضين الفلاح (من الشهداء / المنوفية) أن يطالب به، وإلا (وأرجو أن تنتبه لـ «إلا» هذه) أصبح من حقوقه المكتسبة، أو من مكاسبه المرعية!!

وقبل أن أدخل إلى موضوع البيئة، سأذكر لكم مثلاً على تجاهل حق المواطن، وهو ما شاهدته منذ سنوات فى شارع أحمد لطفى السيد بعينى رأسى شهرًا وراء شهر، فى طريق ذهابى إلى جريدة الأهرام يوميًا.

فشارع أحمد لطفى السيد، الذى يصل بين ميدان العباسية وغمرة، شهد عملية تطوير فى عهد المحافظ يوسف صبرى أبو طالب، أزيلت بمقتضاها تلك المظاهر العشوائية التى كانت تقع على يساره (وأنت فى طريقك إلى وسط المدينة)، وتم تحسين وترميم السور الذى يقع على يمين الشارع، ويحد ممر وشريط المترو.

ولأن الناس على الضفة الأخرى من هذه الممرات المختلفة للسيارات، وللمترو، قد يريدون «العبور»، فقد فكر المخطط فى أن يقيم جسرًا يعبر ممر المترو وصولاً إلى المساكن التى يريد قاطنوها أن «يعبروا».

ولكن هذا الكوبرى (الذى ترى عليه إعلان الشرق للتأمين) قد يكون جميلاً، ومتوخيًا للاعتبارات الهندسية والفنية، ولكنه لم يتوخ (الاعتبارات الإنسانية)، أو بعبارة أخرى (حق المواطن).

ودليلى على هذا، أنه بعد مرور أربعة أيام من تشييد الكوبرى الجميل، قام

أحد الأبطال الشعبيين المجهولين، بفتح ثغرة ضخمة فى سور المترو، وأصبح على المواطن الذى يريد العبور أن يخاطر بحياته، ويقطع شريط المترو على قدميه، ثم ينفذ من هذا الخرم، ليلقى بنفسه - مرة أخرى - فى لجة عبور الشارع، محفوفًا بالأخطار، متدرعًا بالأدعية وبالأحجبة.

ماذا تقول هذه الحكاية؟

هى تقول ببساطة أن الكوبرى لم يوضع (فى المكان الصحيح)، أى أنه لم يدرس حركة الناس، ومجراها، ليخدم على هذه الحركة، ويتجاوب معها، وإنما حاول صناعة مجرى اعتسافى، يحشر فيه الناس، ويحول مجرى حياتهم، لأنه رأى أن موقع الكوبرى هنا أفضل.

وكانت النتيجة أن صنع الأبطال الشعبيون المجهولون هذا «الخرم» الذى يقع - بالضبط - عند نقطة المجرى الحقيقى لحركتهم، وبقى الكوبرى المعدنى الجميل، تمثالاً نميسًا على الفشل، وعلى الانفصال عن الناس، وعلى إهدار طاقة الدولة، وطاقة الآدميين.. وقبل ذلك وبعده على إهدار (حق المواطن)!!

.....

(حق المواطن) فى أحد معانيه، أن يتمتع ببيئة نظيفة.

وسأضرب لكم مثالاً عمّا أقصده بالبيئة النظيفة، وهو مثال يرتبط ببريطانيا التى أعيش فيها لدواعى عملى.

لقد طالعت - مؤخرًا - التقرير السنوى الصادر عن وزارة البيئة، والذى يمتلئ (لا تعنينى المضامين على الأقل فى هذا السياق) بالأرقام، والنسب الصحيحة، والمجازة - المعتمدة من أكبر الجهات العلمية والإحصائية فى البلاد - وسأطرح عليكم حزمة من الأرقام التى يحويها هذا التقرير، ثم نعود إلى مناقشة قضية (حق المواطن) فى بيئة نظيفة:

* تبلغ نسبة المساحة الخضراء (حشيش صناعى وطبيعى - غابات - أراضٍ زراعية) إلى المساحة الكلية فى مدينة لندن الكبرى: واحد إلى ثلاثة (١/٣)!!

* حول لندن (وهذا موضوع آخر) تقع مجموعة من الحدائق والمنتجعات التى تحظى باهتمام تاريخى، ضمنها ٥٩ من المحميات الطبيعية، بالإضافة إلى ٣٥ موقعًا تحظى بأهمية علمية داخل لندن نفسها، وتشمل مناطق مثل «إينج» و«فورست» و«هينولت فورست» (والأخيرة يقع جزء منها فى مقاطعة إيسكس).

* يوجد فى لندن حوالى ١٧ ألف مبنى تاريخى أو أثرى، وخمس (١/٥) هذه المبانى يتواجد فى حدود بلدية وستمنستر (وسط المدينة).

ولكن يمكن اعتبار لندن بالكامل محمية عقارية قانونية، وقد أعدت وزارة التراث (الثقافة) قائمة بالمبانى ذات الصبغة التاريخية والمعمارية، ويطلق على هذه القائمة اسم (المبانى المعروفة أو المدرجة).

وبعض هذه المبانى قائم بذاته، والبعض الآخر فى شكل مجموعة، كالمنازل التى يطلق عليها كلمة «تيراس»، كما تنقسم المبانى المصنفة أو المدرجة إلى مستويين من حيث الأهمية التاريخية (٣٠٪ من الدرجة الأولى، و٧٠٪ من الدرجة الثانية).

* بسبب إجراءات المحافظة على البيئة انخفضت نسبة الدعاوى والأحكام التى صدرت ضد أصحاب السيارات بسبب استخدامهم لآلات التنبيه بنسبة ٢٥٪.

* هناك مجهود أساسى فى الحفاظ على البيئة يقع على كاهل معهد البيئة والأراضى الذى يعتمد على الصور المرسلة من الأقمار الصناعية، والتى زودت المعهد بمعلومات تفصيلية جدًا فى موضوع البيئة، منها ـ على سبيل المثال وليس الحصر ـ تحديد ٢٥ نوعًا من أنواع التربة فى بريطانيا!!

* يعد قطاع الإنشاء والتعمير أكثر القطاعات مسئولية عن زيادة التلوث فى كل القطاعات الصناعية، إذ يبلغ حجم مخلفاته بالأطنان خمسة ملايين (وهى تمثل ٣٥٪ من إجمالى مخلفات المنتجات الصناعية والتجارية).

وهناك مصدر آخر للتلوث، وهو الفضلات، والبقايا الناتجة عن المستشفيات والعيادات وخدمات الأطباء البيطريين.

* وتعتبر محرقة أدمونتون للقمامة هى المسئولة عن التخلص من ١٦٪ من فضلات البيوت فى لندن، وتقوم بتحويل ذلك إلى طاقة كهربائية، إذ تقوم بتوليد ٢٣٢ ألف ميجاوات/ ساعة لكل سنة.

وقد بدأت المرحلة الثانية لتوليد الطاقة من القمامة العمل فى نوفمبر ١٩٩٤، وهى تقع فى جنوب شرق لندن، بطاقة قدرها ٤٢٠ ألف طن فى السنة، وتقوم بحرق الفضلات الناتجة من مناطق جرينتش، ولويشام، وساوث ولك.

* فيما يخص درجة نقاوة الهواء، فإنه منذ القرن الثالث عشر والهواء فى بريطانيا يعانى من مشكلة التلوث، وهذا بسبب مشكلة صناعة الجير، الذى كان يستلزم حرق كميات كبيرة من الفحم فى القرن الخامس عشر وحتى القرن السابع عشر.

وبسبب النقص فى إمداد الوقود الخشبى، وبسبب زيادة السكان، فقد زاد استهلاك الفحم، وبالتالى ازدادت مشكلة تلوث الهواء.

وفى القرن التاسع عشر، ومع ازدياد التعداد، واتساع الرقعة المحيطة بلندن، كانت لندن مغطاة بطبقة من الضباب الكثيف (وهذا سبب تسميتها مدينة الضباب) حتى أنه فى أسبوع واحد من عام ١٨٧٣، ارتفعت نسبة الوفيات بسبب الانتشار الكثيف للضباب إلى ٧٠٠ حالة وفاة، وفى ديسمبر ١٩٥٢، انتشر الضباب بكثافة غير عادية، واستمر أربعة أيام متوالية، وأدى إلى حدوث وفيات غير متوقعة بلغت ما بين ٣٥٠٠ إلى ٤٠٠٠ حادث وفاة.

وفى خلال الفترة الأخيرة من القرن العشرين، انخفضت نسبة الضباب بسبب انخفاض استخدام الفحم كوقود، وكذلك الزيوت الثقيلة، وكذلك تم استحداث مناطق خالية من انبعاث العادم والمخلفات الصناعية، وتشغل هذه المناطق حوالى ٩٠٪ من مساحة لندن، وقد أدى هذا إلى خفض الانبعاثات الدخانية، وعلى رأسها تلك التى تحوى أكسيد الكبريت.

. . . . . .

وبالطبع، فى إمكانى أن أسرد أمامكم عشرات النقاط والأمثلة للاهتمام بالبيئة.. (والاهتمام برصد ظواهرها بالأرقام والإحصاءات العلمية) إذ يربض

أمامى على المكتب تل من الأوراق، من أربع جهات رسمية بريطانية، وهو الذى قمت باختيار هذه المعلومات منه، وفى إمكانى أن أنوع ـ مثلاً ـ أشكال الحدائق العامة فى بريطانيا ما بين الحدائق الملكية التى تصرف عليها العائلة المالكة، مثل هايد بارك وريجنت بارك وريتشموند بارك وسان جيمس بارك وجرين بارك، والحدائق الأخرى التى تنشئها وترعاها المحليات، التى تحاسب بالمليم، على كيفية إنفاقها لموازناتها، هذا فضلاً عن حدائق المؤسسات والمبانى العامة، بالإضافة إلى حدائق البيوت التى يملكها الأفراد. . . لكننى لن أفعل لأن الغرض هو الارتكان ـ ليس إلى فكرة عرض صورة مبهرة عن بريطانيا (فهى كما ذكرت سابقًا ليست أغنى بلاد أوروبا ولا أغنى بلاد العالم، ونحن ـ بيقين ـ نفوقها فى بعض حالات الإنفاق العام!) ـ ولكن الغرض هو الارتكان إلى بعض المؤثرات العامة التى تفيد فى التحليل والاستنتاج.

. . . . . .

وقبل أن أبدأ فى تحليل الوضع المصرى، أرجو ألا تحاول أية جهة مصرية رسمية أو وزارية، أن تركبها «النحرره» وترد على ما كتبت، أو تحاول أن تضعنى فى خندق، وتضع نفسها فى خندق آخر يواجهه، لنصبح طرفًا فى اللعبة السقيمة، لتبادل الردود والحجج، والإفحام، والإسكات.

فأنا مواطن «زهقان»، وقد بلغ بى الضجر مبلغًا عظيمًا، ولست فى حاجة بعد كل هذا العمر فى مزاولة مهنة الصحافة، والذى يتجاوز ربع قرن، أن أكرر أننى أكتب ما أكتبه للمصلحة العامة، وليستفيد منه من يجب أن يستفيد، دون عناد مرذول سمج، أو استخدام مغلوط للأرقام والدلالات، يصف الكوارث بأنها (نكسات)، ويصف الكوليرا بأنها «أمراض صيف»، ويصف قنابل البيئة المتفجرة بأنها مسئولية الأهالى المقرفين الذين لا يلتزمون بالتعليمات، ويلوثون البيئة بزحامهم، وفضلاتهم، أو إسباغ صفة الوطنية من عدمها على المجادلة حول البيئة، بحيث يفترض أن يكون المسئول ـ باستمرار ـ هو ممثل الوطنية. . لا نعرف لماذا؟!!

. . . . . .

(حق المواطن) فى بيئة نظيفة، يعنى المراكمة على جهود حماية البيئة التى كانت مصر تعرفها منذ زمن مضى، وألا نتوقف أو نتعثر فى جهود حماية البيئة لمجرد أننا قررنا إدانة عهد ما سياسيًا، أو قررنا إسباغ صفة (بائد) على هذا العهد.

المراكمة الحضارية أو الوطنية لا تعرف هذه السكتة الزمنية التاريخية التى تدين كل ما سبقها، ليبدأ التاريخ بعدها على «مياه بيضاء»!!

إن ما حدث من تدهور فى مصر على المستوى البيئى، متضمنًا عدم الاستجابة لضرورات التطور أو زيادة عدد السكان، هو جريمة فى حق شعب محترم، كان أفراده يبدون كناس أفاضل، ورعين وطيبين، وفجأة وجد كل من أفراده تذكرة فى يده، ثم وجد من يدفعه عنوة ليحشره فى كباريه غارق فى مسخرة داعرة، وتهتك سافل، لا مزيد عليهما.... فشعر كل من هؤلاء المواطنين أنه جرح فى ورعه وتقاه، وأهين فى تمكسه بمكارم الأخلاق!!

هذا هو حال المواطن حين يحرم من بيئة نظيفة، وحينما يسود حياته عدم الاعتناء بهذا الحق الأساسى من حقوقه.

نعم..

لقد أصبح فى مصر وزارة للبيئة على رأسها سيدة نشيطة، نتابع أخبارها التى لا يخلو بعضها من غرابة، مثل مطاردة السيارات التى تنفث العادم بنفسها، وهو - إذا أذنت السيدة الفاضلة نادية مكرم عبيد - ليس وظيفة الوزيرة.

نحن نريد تخليقًا لأوعية يسهم فيها رأس المال المصرى طواعية، وتساهم فيه الرأسمالية المصرية فى أداء واجبها الاجتماعى، ونحن نريد تخليقًا لأوعية يتدفق فيها رأس المال الأجنبى كمعونات لتطوير البيئة.

ونحن نريد إسهامًا شعبيًا عبر المنظمات غير الحكومية، التى ما دامت قد أصبحت موضة هذا العصر اللذيذ، فمن الأوجب أن يكون أغلبها لتقديم خدمة حقيقية تعيد للناس احترامهم لأنفسهم، لأن الدولة عاملتهم على أنهم مهمون واحترمتهم!!

نعلم أن هنا وهناك بعض الجهد، ولكن الموضوع أكبر بكثير.

نعلم أن الرئيس مبارك ـ شخصيًا ـ رعى ودفع إلى تطوير منشية ناصر فى فبراير الماضى.

ونعلم أن تطويرًا منقوصًا حدث فى منطقة زرائب مصر القديمة حين أزيلت الزرائب، وبقيت الجباسات.

وأذكر أننى عشت منذ ١١ عامًا تجربة مذهلة مع المصور الفنان حسام دياب حين كتبت تحقيقًا عن هذه المنطقة، وجهت سطوره إلى السيدة الفاضلة سوزان مبارك فى مجلة التنمية والبيئة، وذكرت فيه بعض أفكارى عن حق المواطن التى أطورها اليوم، كما تطورت أنا!!

لكن ذلك كله لا يكفى.. وأنا أعلم أن المقارنة بين مصر وبريطانيا فى نظر البعض غير مضبوطة منهجيًا، لأن المقارنة لا تكون إلا بين وحدات متكافئة.

ولكن فى هذه النقطة ـ بالذات ـ سأقارن، لأننا لم نكن زمان بهذا السوء.

طوبى لمحمد على باشا صاحب القناطر الخيرية. وطوبى للخديو إسماعيل باشا صاحب الأورمان والزهرية والحيوانات والأسماك.

.....

ومرة أخرى ليست هذه محاجاة حول تفضيل عصر على عصر، وإنما دعوة إلى المصالحة مع تاريخنا، كيما نستطيع المراكمة على هذا التاريخ.

وأظن أن للصحافة دورًا فى مواجهة كارثة البيئة فى مصر، وأظن أن للإعلام المرئى دورًا.. سوف نناقشهما، ونحدد حدود (المسئولية) وحدود (المحاسبية) بشأنهما، عندما نشعر أن البيئة أصبحت همًا شعبيًا ورسميًا عامًا فى مصر.

**١٧ أبريل ١٩٩٨**

## النص .. والرصاص

تفرض الضرورات المنطقية، والدرامية، والسلوكية ـ أحيانًا ـ أن يكون هناك ما يسمى «برولوج».. أو مقدمة تسبق النص أو العمل المسرحى، وتمهد إليه، وتستدرج مشاعر المتلقين لبؤرة تركيز العمل، وعقدته الداخلية، وتحقق معهم حالة التمسرح، باستحضار الحاسة الجماهيرية لدى المؤدين، واستحضار الحاسة المسرحية لدى النظارة.

وعلى الرغم من كونى بصدد التعرض لعمل بحثى وليس مسرحيًا، أجدنى لا أملك سوى كل تسليم وخضوع لحقيقة أن تقديم وعرض التركيب الجبار لكتاب: (النص والرصاص: الإسلام السياسى والأقباط وأزمات الدولة الحديثة فى مصر) من تأليف السوسيولوجيست البارز نبيل عبد الفتاح، يحتاج إلى برولوج، يشير إلى تلك المنابع الفكرية والعلمية جلية السمو، التى تحصلت منها المكتبة العربية على هذا النص/ العلامة، الذى طال انتظارها إليه.

. . . . . .

من أين بدأ الباحث طريقه المحفوف بالصعاب، فى إنجاز هذا العمل؟!

لعله قد وصف أزمة البداية مطولاً فى مقدمة الكتاب، التى طرحت فروضه وأسئلته فى دفقة واحدة قوية، تطرق العقل، والتفكير بقوة الإيقاظ والتنوير. إلا أننى أعتقد أن أفضل أوصافه لأزمة البداية (إذا جاز هذا التعبير) كانت فى فصل (مرايا الفتنة الطائفية).. إذ تساءل نبيل عبد الفتاح فى هذا الفصل عن «جدوى الكتابة وفعاليتها.. وعما إذا كانت لها شرعية فى النظام الاجتماعى».

هذا على الرغم من أنه يصف الكتابة بأنها: «تعبير عن الوجود.. وكينونة.. وحياة فى الحياة»!!

والواقع أنه بهذا التساؤل، كان يقدم بعض ملامح الوسط القلق، والحيرة والجدل الذاتى الذى يجد المثقف نفسه فيه متى امتلأ بفكرة وقضية، من ذلك

النوع الذى يصلح لأن يكون مشروع عمر للمثقف ومشروع عمر للوطن.

إن حيرته ـ هنا ـ تبدو كفكرة كتبتُ عنها يومًا ـ فى سياق مختلف ـ وأسميتها (الغربة فى الغربة)، أولها غربة الزمان، التى يندفع فيها المثقف المتمرد الإصلاحى إلى الهجرة من الحاضر إلى غير الحاضر، تحت وطأة رفضه لمحيط زمنى لا يوافق على ما يسوده من مفردات أو أفكار، ثم غربة القضية التى يصطنع فيها الجهلاء وأنصاف الموهوبين والخونة أنساقًا وهمية لقضايا وهمية، يهدرون فيها طاقة المجتمع، ومواهبه، وإبداعاته، بما يؤدى ـ تلقائيًا ـ إلى غربة المثقف الحقيقى وسط الجدل أو الحوار العام، أو جوانب تركيز المجتمع فى محيطه الاقتصادى والاجتماعى والثقافى.

نعم..

كانت (الغربة فى الغربة) هى التى دفعت هذا المثقف المهتم والمهموم للتساؤل حول (جدوى الكتابة) فى الموضوع، ثم دفعت به إلى تخطى هذه الحالة وممارسة الكتابة (كحياة فى الحياة)، واستشراف عوالم وآفاق جديدة.

عله اكتشف أن الكتابة ـ فى هذا اللون من القضايا ـ هى التى تخرج به من حال (الغربة فى الغربة)، ثم عله اكتشف ـ أيضًا ـ أن الكتابة ـ فى ذاتها ـ هى التى تخرج به من حال التساؤل حول (جدواها).. فكأنما بالخروجين يثبتان الفرض وهو أنها (حياة فى الحياة)!!

.....

هذا عن (البرولوج).

أما مضمون العمل الذى أبدعه الأستاذ نبيل عبد الفتاح رئيس تحرير «تقرير الحالة الدينية» الذى يصدر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة «الأهرام»، فإنه يتضمن عددًا من القضايا الجوهرية الحاكمة التى طرحها هذا المفكر فى ٣٨٧ صفحة عن دار النهار للنشر ببيروت.

ففى واحد من أجمل فصول هذا الكتاب، والمعنون: «شرعية قانون الفوضى» يقدم فيه إضاءة غير مسبوقة لفكرة قمع القوى الاجتماعية العريضة بواسطة

القانون، والتى أدت إلى سيادة ما يشبه عقدًا اجتماعيًا تراضت فيه الأطراف على خرق القانون، وهو ما أنتج ـ أخيرًا ـ قانونًا ونظامًا للفوضى.

ويتحدث المؤلف ـ فى هذا الإطار ـ عن فكرة عدم استكمال الدول الهامشية لمهام الحداثة.. وهو ما تسبب ـ عضويًا ـ فى عدد من الانتكاسات التى شملت الدولة، والمجتمع، والقيم الحديثة، وكان أهم ما أشار إليه من انتكاسات القانون الحديث هو عدم التوازن بين القواعد القانونية وأعبائها، والقوى الاجتماعية المختلفة، والمشكلات التى تنظمها، والفجوة بين النص والواقع المتغير.

كما يتعرض نبيل عبد الفتاح فى هذا الفصل إلى سيادة المنطق الأمنى، الذى لا يرى فى القانون قيمة لتنظيم المجتمع والعلاقات الاجتماعية، وأداة لاحترام الحريات المدنية، مما أدى إلى شيوع روح عامة لا تبالى بحكم القانون وقيمته فى النظام الاجتماعى والحياة السياسية.

لقد كان المؤلف ـ بهذا الفصل شديد الثقل والقيمة ـ يضع ـ فعليًا وواقعيًا ـ الخلفية المناسبة التى تناول فيها المؤسسة الدينية للإسلام السياسى، ووضع الأقباط داخل الجماعة المصرية، فيما تلا من فصول، كما بدا وكأنه يحدد أبعاد رقعة الشطرنج التى سيحرك عليها بيادق أجزاء هذا الكتاب، بفكر شديد التبلور، ولغة تبدو كمنحوتات عالية التركيب، وكأنه يعلق عليها لافتة (الاختلاف) عما ذكره ـ فى سياق آخر من هذا الكتاب ـ عن اللغة الأكاديمية التى تعانى أزمة المصطلح، واللغة الصحفية التى تسقط أسيرة البلاغيات، أو اللغو البيانى.

ثم فى فصل آخر من فصول الكتاب يقدم نبيل عبد الفتاح ترديدة قانونية أخرى، تمزج بين الاجتهاد فى الفقه، والانبعاث لقواعد النظام القانونى الرشيد، فى متوالية اجتماعية وسياسية واحدة، ولعلها ليست مصادفة ـ هنا ـ أنه أهدى هذا الجزء إلى الشيخ خليفة المنياوى، واضع أول محاولة اجتهادية خلاقة لتقنين مدنى إسلامى حديث على النسق الأوروبى، وعلى مذهب الإمام مالك بطلب من الخديوِ إسماعيل باشا.

كما أهداه إلى الشيخ محمود شلتوت، آخر النسل الشريف للشيخ المنياوى، ومن تبعه بإحسان واجتهاد.

نعم، لم تك مصادفة وهو ـ فى جزء كبير من جوهر إبداعه العلمى فى هذا الكتاب ـ كان يدعو إلى تجديد فكر الإسلام السياسى والخروج من دوائر الأوهام المغلقة (وهْم وحدة الحركة الإسلامية السياسية ـ وهم ضعف الآخر والانتصار السريع والوثوب إلى السلطة ـ وأوهام الذات.. ووهم تأميم النص المقدس ـ ووهم أن العلمانى كافر وخارج عن حياض الدين الإسلامى ـ وأزمة العلاقة مع الواقع وفجوة العلاقة مع النص المقدس).

ثم علنًا نضيف إلى هذه الأزمات أو الأوهام أزمة التقاطعات حول الكلمات والمفاهيم التى تشارك فى صناعة وإنتاج الفكر، وهو ما ذكره المؤلف فى فصل (الحركة الإسلامية والديمقراطيات الغربية ـ الهويات المتنازعة)، إذ أنها ـ بمعنى من المعانى ـ سبب أو نتيجة لكل الأزمات والأوهام التى تسود حركة الإسلام السياسى.

لكن.. هل نجح سِفر نبيل عبد الفتاح (النص والرصاص) فى تقديم شرح ينسخ الالتباس حول المَقدمات التى يمكن اعتبارها افتتاحيات استهلالية للتطرف والعنف الدينى؟

بالقطع.. إذ قدم واحدة من أكثر حالات الرصد إحكامًا ودقة لهذه المقدمات، والتى حدد فيها محورين لحركة تنظيمات الإسلام السياسى، أحدهما: (الأسلمة من أعلى)، والتى نتجت من التكاثر التنظيمى الانفجارى لمنظمات تتحدى النظام السياسى عند الجذور وعلى صعيد الشرعية والهيكلية، وذلك عبر استراتيجية توظف النص المقدس، فى جحد شرعية النظام عند المنابع، كما وظفت نمطًا من التأويلات الفقهية والبشرية للمقدس، فى دعم عملية توظيف العنف الاجتماعى والسياسى ضد الصفوة السياسية الحاكمة.

وثانيهما هى (الأسلمة من الوسط)، التى تعنى اختراق المؤسسات الوسيطة، ونعنى بها ـ هنا ـ مؤسسات المجتمع المدنى كالاتحادات، والجمعيات، وغيرها.

هذا بالإضافة إلى حزمة من التكنيكات تشمل امتداد الحالة الدينية إلى المجال السلوكى، ثم إلى نظام العلامات كالهوية، وتشير إلى أن ظاهرة الإسلام السياسى أصبحت حالة ثقافية، مع سيادة فكرة الترحال الفكرى والسياسى للمثقفين من مربع فكرى إلى غيره، ومع خلط مالا ينبغى خلطه، كما تشمل الحزمة أن الحالة السياسية الإسلامية تضم الجوانب الاقتصادية إلى جوار غيرها.

وفى تناولات طويلة للجماعة القبطية المصرية، وحجم المشاركة السياسية لها، ومدى نجاح الأحزاب المصرية فى جذبها إلى ممارسة سياسية أوسع، فإن الكتاب يشير إلى ضرورة دراسة الفضاء المسيحى المصرى، وتطوير الوعى المسيحى بالحالة الدينية القبطية بمذاهبها وكنائسها كافة، وإنارة الوعى الإسلامى بالمجهول المسيحى، الذى يمثل غيابه أبرز عوامل انتشار الصور النمطية السلبية.

ويؤكد الكتاب ـ كذلك ـ أن الانخراط فى مثل هذا النوع من الدراسات، سيؤدى إلى تطوير البحث الاجتماعى ومده إلى نطاقات مسكوت عنها حتى الآن.

. . . . . .

ولكن الأكثر إثارة فى أفكار هذا المثقف وكتابه الهام، كان تلك الكلمات القليلة التى سطرها على ظهر الغلاف، والتى تقول «إن هذه التيارات الدينية كانت حركة اجتماعية لم تجد فى الأساطير والأبنية والأقنعة والمؤسسات والأفكار الحديثة ما يلبى تطلعاتها، وآمالها، ومصالحها، وبالأحرى، بعد أن اكتشفت أن هذه الأبنية خانت وعودها، وأساطيرها المعلنة، والتى سبق أن آمنا بها كطريق للتغيير، أو الإصلاح، أو الثورة، أو لتأمين حياة أفضل لها، ولأبنائها ولأمتها المصرية».

لقد كانت هذه السطور بمثابة خروج مما أسماه المؤلف فى سياق آخر من هذا الكتاب، الصور النمطية، والطابع التأملى حول الظواهر السياسية السائدة، مع غلبة نزعات الهجاء والسجال، وأحكام القيمة المجنحة فى الخطابات المختلفة

حول الإسلام السياسى برفض جماعاته،أو تأييد أطروحاتها، ومشروعها السياسى.

لقد كان (النص والرصاص) واحدًا من أكمل التناولات الثقافية التى قرأتها عن ظاهرة ارتفاع وسيطرة الخطاب الدينى، ومواجهته مع قيم الدولة الحديثة فى مصر.

وكان ـ بحق ـ اقترابًا يحدد ـ من اللحظة الأولى ـ أهدافه، من أن التعامل مع هذه الظاهرة ليس بمنطق اعتدناه من بعض الخبراء والباحثين يشبه منطق السائحين، الذين يكتفون بأخذ صورة إلى جوار عنوان الموضوع، أو ركوب الجمل حوله.

وإنما كنا بصدد اقتراب فكرى عميق، وخلاق، وقادر فى كل سطر على توليد وإنتاج أجزاء ترسانة شديدة التعقيد من الأفكار والمفاهيم تسعى لأن تخرج بالوطن، وبجماعته الثقافية، من غربتها، كما خرج هذا المثقف من غربته!

**٤ مايو ١٩٩٨**

## نار الهوى

لأيام ثلاثة استمتعت بصحبة الأديب الصديق جمال الغيطانى فى لندن، وجمعتنا زيارات متحفية لمجموعة الأغاخان، أو «صياعات» عظمى فى شوارع البلد، أو جلسات حكى ومناقشة مع الأديب الكبير الطيب صالح، والناقد الدكتور صبرى حافظ، وزميلى يسرى حسين.

وزيارات الأصدقاء، وخاصة عندما يكونون من الموهوبين العلامات مثل جمال، إنما تفتح - فى الواقع - الشهية لطرح الأفكار وتوليد الصلة، وتبادل الخبرات، والانخراط فى الحوار للحفاظ على حيوية العقل (فرديًا) أو (فى إطار جماعة المثقفين).

وقد كان!!

فقد امتدت بنا حبال الوصل بين علاقة المثقف بالسلطة فى العالم العربى، وبين روايته الأخيرة، حكايات المؤسسة، وبين الفنون الفارسية، وإعادة إنتاج وتحوير - بل وتثوير - الرؤى النقدية لتجليات الغيطانى، أو لموسم الهجرة للشمال للطيب صالح، وتحليل اجتماعى وثقافى لنتاج نجيب محفوظ، ومحاولة للاقتراب والفهم من المراحل التى مرت بها ندوته، وحكايات للغيطانى عن آخر آراء الأستاذ نجيب محفوظ فى الفتنة الطائفية والديمقراطية.

ولما كان جمال قد جاءنى من أكسفورد، حيث كان يحاضر عن محيى الدين بن عربى، ولما كان لجمال وصف شهير اقتبسه من أقوال ابن عربى، وأطلقه على جيله فى حديث منشور أجريته معه عام ١٩٨٨.. «يمشون على الأرض وهم شهداء»، فقد أصبحت الإشارة لابن عربى، أو إلى قوله المقتبس، بمثابة المفتاح الكودى بينه وبينى حول أمور عديدة، تبدأ من فهم الفيلسوف أو الأديب للعلم والفيزياء، وتنتهى ببحور الصوفية التى بلغ فيها ابن عربى ذرى سامقة شديدة العلو.

واحتل الصوفى العربى الكبير بهذا أغلب مساحة الحوار بيننا، منذ أن جاء الغيطانى إلى لندن قادمًا من ندوته، ومفعمًا بأفكار جديدة عن ابن عربى، ودلالة تاريخه المدون، وإبداعه المدون كذلك.

ولم يكتف جمال بهذا، بل أهدانى شريطًا لم يتوقف عن الحديث حوله معى ومع الطيب صالح وصبرى حافظ.

الشريط غريب حقيقة.

اسمه «نار الهوى فى المحلة» من إنشاد الشيخ ياسين التهامى!!

وأصخت السمع لكلمات الشريط:

«يا حبيبى لا كان وجد

به الأعماق جامدة

ولا غرام به الأشواق لم تهج

وكل لسان بالهوى لهج

وكل جفن بالإجفاء لم يعج»!!

نحن ـ إذن ـ أمام بناء جبار التركيب، لا يسانده إرث من كبرياء قديم فحسب، وإنما تسانده ترسانة كاملة من الفكر والفلسفة، والتأمل الصوفى فى أرقى درجاتهم وأعلى مراتبهم.

إن هذا الموقف مع الغيطانى والتهامى يردنى فورًا إلى موقف شبيه، ولكن على شكل آخر، حين انخرطت فى حوار طويل مع الشاعر الكبير عبد الرحمن الأبنودى عن السيرة الهلالية، وهو واحد من أكبر الأعمال الإبداعية فى تاريخ التراث العربى وأكثرهم تعقيدًا، وقد امتدت أحداثها على رقعة تشمل أكثر من مجتمع عربى، فى شبه الجزيرة، واليمن، وتونس، ومصر، والسودان.

وقد كان رأى الأبنودى أننا نخسر كثيرًا حين نجعل فلاحينا، وملح الأرض فينا، يخجلون من إبداعاتهم التلقائية، ويهدون سوامرهم، ويغنون لعبد الحليم

حافظ أو لشادية.. فهذه المراكمات من الإبداعات التلقائية هى فى الواقع أثمن ما نملك على المستوى الفنى والثقافى.

وليس غريبًا - إذن - أن يجتمع الأبنودى والغيطانى، بل والطيب صالح، فى إحساس إبداعى واحد جميل، يستدعى من الذاكرة التراثية ليطور وينوع، أو - حتى - ليدخل فى حوار ويصطدم مع مفرداتها ومع تركيباتها.

وليس غريبًا أن يمتد الحوار بين الثلاثة على طول السنوات الماضية حول معان مشابهة، ترتبط بذلك الإبداع الذى حملته موجات الهجرة القبلية العربية من بلد إلى بلد، ليقوم بدور المؤرخ والراوى، أو الحكواتى، وينطق بأطنان الحكمة والفلسفة المختزنة فى عقل وروح الأمة.

ولقد حضرت - بنفسى - عددًا من هذه الحوارات الجميلة والمدهشة، والتى تعد فى ذاتها أعمالاً فنية، بين الأبنودى والطيب صالح، وبين الأبنودى والغيطانى.. ثم قدر لى فى الأسبوع الماضى أن أضيف إليها هذا الحوار العذب الجميل بين الغيطانى والطيب صالح والدكتور صبرى حافظ حول الشيخ ياسين التهامى، ومحيى الدين بن عربى، ونار الهوى فى المحلة!

**٢٠ أبريل ١٩٩٨**

## لذكراه

بحروف صغيرة، وفى جملة واحدة قصيرة ودالة، اكتسى سطح بعض الدكك الخشبية على ضفة النهر فى كينجستون أهمية بالغة بالنسبة لي، بل وثبتتنى هذه الحروف لفترة ليست قصيرة أتأملها وأفكر فيها وأعجب بها:

«فى ذكرى «فلان»، الذى تبرع للمجلس المحلى من أجل صناعة هذه الأريكة»!

ولم تكن واحدة، وإنما عشرات الأرائك، كل منها يحمل اسم مواطن عادى، ليس مسئولاً كبيرًا، وليس رجل أعمال، وليس أى شىء سوى كونه واحدًا من أبناء البلد، يضع بصمته ولمسته المتواضعة على الحياة فى وطنه، من خلال «تربيته» على كتف مواطن، أو إشاعة للبسمة على شفاه.

ورغم معلوميتى أن إعلانات الوفيات تمثل جزءًا معتبرًا من دخل إدارة الاعلانات فى صحيفتى، إلا أننى أتجاسر قائلاً أن إنفاق نسبة من الأموال التى يدفعها مواطنو بلادى كرسوم لنشر النعى، والتنابذ بطول هذا النعى واحتوائه على عدد من أسماء المسئولين ترصعه، أو عدد من ألقاب العائلات الكبرى تزينه، ظنًا منهم بأن هذا النعى تخليد لذكرى المتوفى، وتخصيص هذه النسبة لأعمال من شأنها إشاعة جو من التكاتف الاجتماعى العام، يعد دليل حضارة، كما يعد دليل إنسانية أكثر بكثير من حمى التفاخر بالوفاة التى تعكسها هذه الإعلانات.

وأنا لا أطلب من دور الصحف أن تقوم بهذا الدور، لأنها تقوم به - بالفعل - وعلى الأخص «الأهرام»، ولكننى أطلب إلى الناس أن يبدلوا نسق المفاهيم الذى يتعاملون به مع ظاهرة الوفاة، وتخليد وتمجيد المتوفين، بحيث تصب جهودهم فى مجرى أكثر إنسانية، وعاطفية، وجمالاً، وتخرج من إطار الفردية الضيق، إلى أفق أكثر رحابة وعمومية، واتصافًا بالتشارك والتضامن.

ومن دون شك، فإن يومًا نرى فيه أسماء الراحلين على شجرة، أو أريكة فى

حديقة، أو تمثال صغير هنا أو هناك، أو منحة لتعليم الفنون أو العلوم أو الآداب، أو هبة لأبحاث مواجهة وعلاج الأمراض، سيكون يومًا أجمل بكثير من الذى نرى فيه هذه الأسماء مسبوقة وملحقة بأن المتوفى قريب ونسيب وحبيب هذه العائلة، أو ذلك المسئول.

**١ سبتمبر ١٩٩٧**

obeikandl.com

## متجاورة

للدكتور جابر عصفور ـ أستاذ الأدب العربى، وأمين المجلس الأعلى للثقافة ـ كتاب شديد الأهمية، أحسب أن أى مثقف يشتغل أو ينشغل بالنقد، وبقوانين الحركة فى الساحتين الفكرية والثقافية، لابد أن يجد فيه مفاتيح لمستغلقات احتلت ذهنه، ودفعته إلى البحث وإعادة البحث لفترة معتبرة من احتكاكه بالحالة الثقافية العربية من جهة، وبالجماعة الثقافية العربية من جهة أخرى.. وأعنى به كتاب (المرايا المتجاورة: دراسة فى نقد طه حسين).

هذا الكتاب ليس مجرد دراسة لفكر الأستاذ العميد، أو تسليطًا للضوء على الموضوعات التى شملها طه حسين بالبحث أو الكتابة، ولكنه اكتشاف مذهل لمكنونات المعانى والأفكار فى نصوص العميد، بالتركيز على التباينات الداخلية والتعددية المتضمنة فى هذه النصوص.

والواقع أن هناك نقطة بالغة الأهمية إلى جوار نقاط عديدة هامة فى هذا النص، أود أن أتوقف عندها طويلاً، إذ أنها إضاءة لم يسبق أحد، الدكتور جابر عصفور، إليها فيما يخص أدب طه حسين ونقده.. ألا وهى «التمييز القاطع فى نصوص العميد، بين حالة بناء نقدى واحد أو عدة أبنية نقدية، أو فوضى بنائية متكاملة الأركان، ثم الخلوص من هذا إلى أن ضم منظور التعاقب الأفقى إلى منظور التباين الرأسى فى هذه النصوص، يؤدى إلى التركيز على عناصر الثبات التى تكمن وراء التغير، وعوامل الاتفاق النوعى التى تقابل التباين الكيفى، أو ـ بعبارة أخرى ـ إدراك أن نقد طه حسين يحتوى على نوع من البناء له حدته المتميزة، وصيغته التكوينية الخاصة».

هذه الإشكالية كما وصفها ـ بالنص ـ الدكتور جابر عصفور، هى واحدة من أعقد القضايا، ليس فقط فى إطار أدب طه حسين، ولكن فى إطار الفكر العربى بعامة.

فتعددية طه حسين، التى تنقل فيها بين الأدب الكلاسى الإغريقى، وعدمية كافكا ووجودية سارتر، وربما كل المدارس الفكرية والفنية الغربية، والتى تعطى الانطباع الخاطئ حول فوضوية بناءية تشيع وتذيع فى نقده وأدبه، هى ـ فى

الواقع ـ (تعددية فى إطار)، بمعنى أن هناك رؤية تنتظمها وتعكسها لتمثل إضاءة تنويرية، تكون بمثابة الدليل الهادى إلى كل مدارس الفكر الغربى التى صاغت منهج طه حسين فى البحث، ونظرته إلى مذاهب الإبداع ومعايير النقد.

أما الجانب الآخر من هذه الإشكالية، والذى لم يتوقف عنده كثيرًا الدكتور جابر، وإلا عد خروجًا على الموضوع أو تحميلاً له بما لا يلزم، فهو انزعاج العقل المصرى أو العربى من مسألة التعددية هذه، حتى لو كانت فى إطار نقل مثقف عربى رفيع المقام، لما أسماه الدكتور عصفور (استيحاء من كلمات العميد): المرايا المتجاورة، التى تعنى ـ فيما تعنى ـ هذا الانعكاس لصورة المدارس الفكرية الغربية على سطح، أو سطوح المرايا التى تمثل منهج العميد فى الانتقاء والاختيار.

والواقع أن هذه الظاهرة إنما تعبر عن أمرين، أولهما أن البناء النقدى للعقل الجماعى العربى، يعتمد على آلية، هى فى الواقع عكس الآلية التى يرتكز عليها فكر طه حسين، (وهى التى ـ كثيرًا ـ ما أشرت إليها فى تحليلى لبعض الأعمال الفنية والأدبية).

وهذه الآلية هى (الواحدية فى إطار التعدد) والتى تعنى عكس ما طرحه طه حسين عن (التعدد فى إطار الواحدية)!!

وبغض النظر عن النصوص الأدبية التى تعالج مروحة واسعة من الموضوعات، والتى اشتمل عليها هذا الكتاب الموسوعى.. فإن هذه الفكرة ـ فى ذاتها ـ أصبحت السمت الدال على التفكير العربى فى هذا الزمان، وأظنها ظاهرة ينبغى الوقوف أمامها ومناقشتها على حواف هذا الكتاب القديم، بل إنها استدعت أفكاره وسطوره إلى الذهن على الفور حين تأملتها، أو وجدت عددًا من التطبيقات يشير إليها.. تعامل العقل العربى مع الغرب ـ مثلاً ـ ينبنى على عدة مقولات أو معادلات حادة، مرتبطة بهذا النهج، ففى حالة الصراع، أو فى حالة التعاون، أو فى حالة التوحد، نحن نتعامل مع جانب واحد من الغرب.. ولا نتمتع بشمول النظرة، أو التسامح إزاء ما نستشعر أنه يخرج عن الفكرة القبلية سابقة التجهيز التى امتلأنا بها، والتى أردناها المدخل الوحيد فى التعامل مع هذا الغرب.

وهذه الواحدية لا ترتبط ـ فقط ـ بنظرتنا للغرب، ولكنها ترتبط ـ أيضًا ـ

بنظرتنا إلى أنفسنا، وبالتالى محاسبتنا لهذا الغرب، ومدى تحيزه من عدمه إزائنا، تتم وفقًا لها.

أو بعبارة أخرى، نحن نرى فى أنفسنا رأيًا ثم نحاسب الغرب على أنه لا يرى نفس الرأى.. على الرغم من أن العقل الغربى يمكن أن يكون مقتنعًا بما نردده، ولكنه يراه فى إطار حزمة متكاملة من الانطباعات والرؤى، التى قد لا تكون كلها على كيفنا ومزاجنا، ومن ثم نراها استعمارية، وعدوانية وتآمرية.. وغير ذلك من المفردات التى درجنا على النظر بها إلى أية وجهة نظر تخرج عن نطاق تصورنا عن أنفسنا!!!

كل هذه الاستلهامات التى أوحت لى بها قراءة ثالثة أو رابعة لكتاب الدكتور جابر عصفور القديم (المرايا المتجاورة)، يمكن أن أسميها استيلادًا للأفكار والمعانى.

ولكنها ترتد ـ مرة أخرى ـ لتصبح مناقشة لنهج هذا الكتاب وأفكاره التى ـ فى حقيقة أمرها ـ تبلور علاقة الصراع بين نهجين متفاعلين، متصادمين فى الساحة الفكرية العربية طوال هذا القرن الذى يوشك على الأفول، وهما نهج الانغلاق، والانكفاء على الذات، ونهج الحوار، والانفتاح على العالم.. نهج تحكمى يقوم على نفى الآخر، ونهج تنويرى يقوم على التواصل مع الآخر.. نهج يقوم على محاكاة التراث والانشغال بما أنجزه السلف، ونهج يقوم على الاستكشاف الجسور لعوالم ما دارت فى خلد هذا التراث، أو ذاك السلف!

وما نظن أن طه حسين بمعاركه الكثيرة كان خارج هذا الإطار.

وما نظن أن جابر عصفور قد غابت عنه هذه الزاوية بالذات وهو يعد أطروحته الشهيرة عن نقد العميد.

ومن ثم فإن هذا الكتاب هو واحد من الأعمال الفكرية الخالدة والنادرة التى تفتح بموضوعها المباشر الباب واسعًا لإعمال الفكر فى قضايا أوسع بكبير من عنوانها المباشر، أو قضيتها المباشرة.

إنه فى ذاته واحد من الحالات العربية النادرة التى تنتزع (التعددية فى الإطار الواحدى) بدلاً من أن تنصاع إلى قانون (الوحدانية ولو فى إطار التعدد)!!

**٢٠ يوليو ١٩٩٨**

## هـــواة

كل منا لا يملك إزاء بعض ما يصادفه فى عواصم العالم المختلفة إلا أن ينخرط فى مقارنة بين ما يراه فى الدنيا، وما يعايشه فى الوطن.

والحقيقة أننى غير ميال لأن يغرق المرء منا تمامًا فى مثل هذه المقارنات، وأن يكتفى بأخذ الدرس والعبرة فحسب، لأن المقارنة لا تكون إلا بين وحدات متكافئة.. هذا من جهة.. كما أن المقارنة تفترض - فى بعض المجالات - وجود أساس مشابه لدينا نقوم بتعديله أو تطويره أو مواءمته.. وهذا من جهة أخرى.

ولكن المقارنات التى أحب أن أنغمس فيها تمامًا، هى ذات طابع عام جدًا لا يركز على حالة بعينها، وأهم هذه المقارنات فى نظرى هى الاحتفال الشديد بالهواة فى كل مجال، وفى كل مكان، وهم الذين قد تجدهم على الأرصفة أو فى «كوفنت جاردن» أو «ليسيتر سكوير» يعزفون الموسيقى الكلاسيك، أو يقدمون الرقص الشعبى، أو يعرضون فنون الحاوى والأراجوز.

ومن دون أن نفلسفها كثيرًا، فإن الهواة فى أى مجال رياضى أو علمى أو فنى هم تيارات حية تتشكل منها ضفيرة الحضارة فى أى مجتمع من المجتمعات.

فقط على المجتمع ألا يوجع قلبه كثيرًا، ويتعب نفسه طويلاً فى محاولة تعديل الاتجاه لدى الهواة فيه، أو حشرهم عسفًا فى صيغ يتصورها الأهم والأكثر ثقلاً.

وفقط على الهواة أن يدركوا أن هناك مسافة فاصلة ما بين حالة الهواية وحالة الاحتراف، اسمها: اقتران الهواية بالدراسة، وهى التى تجعل من الهواة فى مجتمع كهذا الذى نعيش فيه موصولة العلاقة بأصول وجذور «الفن»، والفن بتعريفه القاموسى «هو جعل الشىء فنونًا وأنواعًا»، أى أنه لا يختص بمجال معين من الحالات الإبداعية، ولكنه يشمل كل جدائل الضفيرة الحضارية كما كنا نذكر حالاً.

. . . . . .

هذه ملحوظة عابرة جدًا نثبتها بدبوس على هامش المناقشات التى تثور بشكل كاسح حول اختفاء العبقريات وعدم إنتاج المجتمع للمبدعين بشكل كاف.

إنتاج المبدعين يكون لاعتبارات وليس بقرار، وإنتاج المبدعين يكون بالهواية.. ثم بالدراسة .. ثم بالاحتراف.

**٢١ أبريل ١٩٩٧**

obeikandl.com

## مفتشو النضال.. وأصحاب التوكيل التجارى للوطنية.. فى حالة استعداد قصوى

## ليلة القبض على نجيب محفوظ

بين (عبادة الفرد) و(تقديس الفكرة)، تمتد مساحة شديدة التخلف يمارس فيها مفتشو النضال وأصحاب التوكيل التجارى للوطنية عمليات قمع وإرهاب واسعة النطاق.

وعادة ما تعتمد عمليات الإرهاب الفكرى على وسائط تتراوح بين المخاصمة والنفى، مرورًا بالاستبعاد، والحصار، والتجاهل!!

المشهد العام فى مصر المحروسة أصبح يحفل ويعج بمثل هذه الحالات، أو فلنقل إن مساحة التخلف الممتدة ما بين عبادة الفرد وتقديس الفكرة، أصبحت تشغل معظم رقعته، وتتحصل على أغلب إضاءته!

والمشهد العام فى المحروسة أصبح مشدودًا إلى الماضى، وإلى ظواهر (عبادة الفرد) و(تقديس الفكرة) حتى فى غير سياقها الزمنى الطبيعى، كما أصبح للأدب الشعبى الفلكلورى السياسى رموزه ونجومه الذين يصادرون على الحاضر، ويصادرون على المستقبل، مصرين على تلبيس مقولات «ماضوية» على أى شىء وكل شىء جبرًا واعتسافًا، ثم مهددين المجتمع وقواه الحية وشخوصه المثقفة الحرة، إما بالتكفير السياسى (أى بسحب أنواط الامتياز الوطنية من أى شخص، ما إذا حاد عن الولاء للماضى، أو عبادة الفرد، أو تقديس الفكرة كما وردت - بالضبط - فى إطار هذا الماضى بنصها وفصها).. وإما بالتكفير الفنى - إذا جاز التعبير - الذى يسحب من المبدع (أديبًا أو مفكرًا أو سياسيًا.. أو غيره) كل صكوك الاعتراف الفنى التى حصلها على امتداد عمره، وتجربته، واستلهاماته، وإبداعاته.

.....

فماذا إذا كان هذا الخارج المرتد هو الأستاذ نجيب محفوظ عبد العزيز، حامل جائزة نوبل والعبقرية التى تمثل حالة إجماع مصرية، وعربية ودولية؟؟!

. . . . . .

إن الساحة العامة فى مصر توشك على أن تستقبل طلائع موكب جديد من مواكب الانتصار للديكتاتورية والتخلف السياسيين، مصحوبًا بتأييد حار من ممثلى الجهل الرشيق، والسفالة الأنيقة!!

وسبب توقعنا لاستقبال هذا الموكب هو الحوار/ الشهادة الذى أدلى به الأستاذ نجيب محفوظ للناقد الكبير الأستاذ رجاء النقاش على امتداد زمنى طويل يربو على السنوات السبع، وجمعه الأخير فى كتاب صدر مؤخرًا متضمنًا آراء الأديب العملاق فيما مر به، ومرت به مصر من أحداث، ووقائع، وحكام، وأحلام، وهزائم، وثورات، وفوران، وإحباطات!

وقبل أن نعرض لطبيعة الأثر المبدئى الذى أحدثه هذا الكتاب شديد الأهمية، لابد أن نشير إلى أن أحدًا غير الأستاذ رجاء النقاش، ما كان ليستطيع أن يستقطر آراء وأفكار الأستاذ نجيب محفوظ على النحو الذى احتوته دفتا كتاب: «نجيب محفوظ: صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته»!

لماذا؟..

الإجابة - ببساطة - تنبع من مجموعة من الاعتبارات، وليس من مجرد فرمان، أو حكم، أو قرار جرى به القلم فى إسراف تعبير، أو تماشيًا مع استسهال إصدار القرارات والأحكام، وبالذات تلك التى تتسم بالإطلاقية!!

وأول هذه الاعتبارات.. أن الأستاذ رجاء النقاش نفسه هو صاحب واحدة من أكمل وأهم الرؤى النقدية لأدب الأستاذ نجيب محفوظ، وهى تلك التى تضمنها (قبل حوالى ثلاثين عامًا) كتابه ثقيل العيار (أدباء معاصرون).

وقد اعتمد الأستاذ النقاش فى هذا الكتاب على عدة مداخل فى تناوله النقدى للأدب «المحفوظى»، منها - على سبيل المثال - مدخل (التحليل الاجتماعى)

وبالذات فيما يخص الثلاثية، أو مدخل (التحليل السيكولوجى) فيما يخص زقاق المدق، أو اللص والكلاب.

ثم عنيت هذه الدراسة الظاهرة، التى صدرت قبل أن يصبح «الاسترزاق» بنجيب محفوظ صناعة وعلمًا، باستدعاء واستحضار مفردات الجو السياسى والاجتماعى، الذى جرت وقائع إبداعات نجيب محفوظ فيه، أو الذى أنتجت هذه الأعمال فيه بالفعل.. فجاءت دراسة الأستاذ النقاش إبداعًا موازيًا، ومرجعية يتحتم الرجوع إليها، استغراقًا فى مزيد من المعرفة، وتوليدًا لمزيد من الأفكار والمشاعر لدى الجمهور حول أدب نجيب محفوظ.

.....

ولم يكن الحوار الطويل الجديد بين الأديب والناقد، إذن، بمعزل عن هذا السياق، من الاستغراق المشترك بينهما، والذى كانت واحدة من أهم تجلياته دراسة (أدباء معاصرون).

.....

فإذا عدنا إلى ما ورد من آراء ـ وبالذات سياسية ـ فى هذا الحوار الطويل، ثم ما جاء فى بعض الردود المبدئية عليه، فإننا ـ من دون شك ـ نجد أنفسنا أسرى لحالة وإحساس توقع بالاجتياح من جانب قوى الجهل الرشيق، والسفالة الأنيقة وكتائب الديكتاتورية والتخلف السياسيين.

ومن عجب، أن هذه القوى وتلك الكتائب لم تر فى الحجم العملاق الذى يمثله نجيب محفوظ رادعًا، ولو معنويًا رمزيًا يحول دون رفع اللاءات فى وجهه، توطئة لسحب أنواط الامتياز الوطنى، أو صكوك الاعتراف الفنى منه، أو به!!!

الرجل ـ ببساطة ـ عبر عن وجهة نظر يراها الكثيرون غيره، ولكن حجمه ومكانته كانا عاملين أسهما فى تحرير رؤيته، أو رأيه من خشية جماعات الإرهاب الفكرى والسياسى، وأسهما ـ كذلك ـ فى تخفيف آرائه من حسابات خائبة كثيرة، وتضاعيف لهذه الحسابات أكثر خيبة.

نعم.. لقد رأى أن عبد الناصر ليست له إيجابيات.

نعم.. رأى أن السادات زعيم داهية.

نعم.. انحاز بوضوح وقوة إلى ثورة ١٩١٩ وحزب الوفد، وإلى سعد زغلول، ومصطفى النحاس.

نعم.. انتقد الأستاذ محمد حسنين هيكل.

.....

ما هى المشكلة فى هذا كله؟

هذه عناصر فكر الأديب، وهو ليس أى أديب.. إنه نجيب محفوظ الذى يسكن عقل وقلب أمة بأسرها، والذى أصبح عند بعض البسطاء رمزًا دالاً على فن الرواية كاملاً، أى على فرع من فروع الإبداع بزيه، بينما بعض من يعلنون حالة الاستعداد القصوى لمواجهة حالة إفصاح محفوظية حرة لا يتحصلون مجرد معرفة سكان شارع بأدبهم، أو بأسمائهم.

من غير المفهوم (حتى مع اختلافى مع بعض آراء الأستاذ نجيب محفوظ) أن يستعد البعض (ممن رأوا ليلة صدور كتاب رجاء النقاش، على أنها يجب أن تكون ليلة القبض على نجيب محفوظ) لشهر أسلحتهم، أو للحديث عن أنها أفكار روائى، أو خيالات فنان، إذ أن للأدب ـ كما يصفه عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ـ وظيفة سياسية لا يمكن نكرانها أو تجاهلها، فقد قال الأستاذ العميد: «الإصلاح والتغيير، وتحسين حال الشعوب، وترقية شئون الإنسانية، أشياء تصدر عن الأدب صدورًا طبيعيًا.. كما يصدر الضوء عن الشمس»!!

ولقد رأى نجيب محفوظ ما رآه فى إطار فهمه السياسى، وفى إطار تلك الوظيفة السياسية للأدب كما حددها العميد، وكذلك فى إطار تحرره من عبادة الفرد وتقديس الفكرة، الناجم ـ فى المقام الأول ـ عن تحققه إلى أقصى درجات التحقق، وحصوله على أعلى درجات الاعتراف، فهو ـ ببساطة ـ عبقرية بلا عقد!!

أما هؤلاء الذين استهولوا أو استكبروا أن يكون لهذا الأديب العملاق رأى سياسى، أو رؤية تخالف ما درجوا على التمرغ فى ساحات تطرفه، أو التمايل الدرويشى على دقات زاره، فإنهم يحاولون الوثوب على مساحة تعبير حرة عاشها وهندسها وأطلقها نجيب محفوظ، ليخنقوها ويئدوها وهى على قيد الحياة، على قيد التحقق، لمجرد اختلافها مع عقائدهم الأيديولوجية، أو امتدادها إلى خارج نطاق الرؤى المحدودة، التى تعد أقصى ما يمكنهم الوصول إلى إدراكه ـ بحسب مستواهم الثقافى والتعليمى، وبحسب مدى اتساع ساحة تجربتهم الإنسانية لتشمل التعرض إلى جماعات إنسانية أكبر، وعدم قصر وظيفة الإبداع على الطبقات الاجتماعية الدنيا، وتحويله إلى لازمة من لوازمها (لاندرى لماذا؟!)

ثم إن جماعات الجهل الرشيق، والسفالة الأنيقة، المؤيدة ـ بحرارة ـ من كتائب الديكتاتورية والتخلف السياسيين، التى تجد مساحتها المثالية فى مسافة التخلف الواقعة بين عبادة الفرد وتقديس الفكرة، رأت أن (توظف) عبقرية ومكانة نجيب محفوظ لخدمة تمرير أفكارها، أو إسباغ شرعية وثقل على وضع آراء وأشخاص، ليسوا ـ بالضرورة ـ متمتعين بالعبقرية، أو بالمكانة.. بالثقل أو بالشرعية!!!

فكان رموز ونجوم هذه الجماعات يعمدون إلى رفع المقولات، أو الشهادات المحفوظية، باعتبارها الحق.. الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم إذا أعلن نجيب فى حواره/ الشهادة مع الأستاذ رجاء النقاش، ما يتصادم مع انخراطهم واستغراقهم فى الماضى، فإنهم يبادرون إلى الرفض والتحفظ، أو بعبارة أخرى، فإنهم يتعاملون مع شهادة نجيب محفوظ بشكل انتقائى، طبقًا للهوى والغرض، وعلى الكيف، والمزاج!!

فإذا ما استبعدنا الجانب الفكاهى الذى يتبدى واضحًا من الندية الوهمية التى يحاول البعض إظهارها من خلال تقريع نجيب محفوظ وتأديبه لأنه أبدى رأيه، فإن تناقضًا هيكليًا آخر يبرز من خلال احتشاد مفتشى النضال لمعاقبة الأديب الكبير، وهذا التناقض يمكن اختزاله فى المعادلة الآتية: (نحن قوة لا تؤمن بالديمقراطية + نحن قوة تطالب لنفسها بحق التعبير الديمقراطى عن رأيها + نحن

قوة لا تؤمن بالديمقراطية، وإذا أتيح لها التعبير الديمقراطى عن رأيها فسوف لا تألو جهدًا فى سبيل حرمان الناس من إبداء آرائهم)!!

وبالطبع.. فمثل هذه اللخبطة المنهجية، وليدة الجهل ولا شىء آخر، توقع أصحابها فى مآزق مذهلة من طراز محاولة فرض الوصاية على الأديب الكبير، أو إعادة صياغته، وفقًا لذوق كل منهم السياسى، أو اتساع أفقه، أو دقة تصوره وبما يجعلهم - فى التحليل الأخير - طبقة عازلة بين الرجل والناس، أو هكذا تخيلوا، ومن هنا فقد استقطبوا طاقات رفض هائلة من الناس، كل الناس!!

.....

فى كل السطور التى مضت لم أتعرض لمضمون ما ذكره الأستاذ نجيب محفوظ، ولكننى تعرضت لحقه فى إبداء رأيه، ودعوت الناس إلى مقاومة ثقافة الديكتاتورية حين تحاول أن تلقى - من جديد - بمرساتها فى مرافئنا، وموانينا.

أما نقطة الضعف الأساسية التى تسم تحرك جماعات الديكتاتورية المبدئى، فقد كانت استفزاز الشعب المصرى كله ضد محاولتهم تأميم نجيب محفوظ.

فنجيب محفوظ ليس ملكًا لهم، ولن يقبضوا عليه أو يحبسوه!

نجيب ملكنا كلنا..

ومن حقه أن يعبر عنا، ويعبر عن نفسه، فى مساحة حرة بعيدة عن مساحة التخلف التى تقبع بين عبادة الفرد وتقديس الفكرة، كما تقبع بين سلطة الماضى وسيادة مرجعياته.

**١٠ يوليو ١٩٩٨**

## علم الحوار

الحوار/ الشهادة الذى أدلى به الأستاذ نجيب محفوظ إلى الناقد الكبير رجاء النقاش على امتداد زمنى بلغ سنوات سبع، وجمع الأستاذ مادته بين دفتى كتاب صدر - مؤخرًا - عن مركز الأهرام للترجمة والنشر.. يفتح من الوجهتين السياسية والفنية أبواب نقاش كبير ينبغى أن يجىء على قد مقام الكاتب، والناقد، والقضايا بالغة الأهمية التى أثارها!

ولأننى تناولت البعد السياسى فى هذا الحوار المهم، فى مقال نشرته فى مجلة «الأهرام العربى» ضمن تحقيق موسع أجرته المجلة حول ما جاء فى شهادة الأديب العملاق، فسوف أقصر سطورى المقبلة على البعد الفنى فى كتاب محفوظ/ النقاش.

والواقع أن قضية (الحوار) فى ذاتها سادتها فى مصر التباسات كثيرة، فى ذهن النخبة أو فى الذهن العام، أو فى أذهان بعض المتنطعين الذين ابتذلوا كلمة الحوار، وسحبوها إلى أرضية التلوين الصوتى، أو الأسئلة المفتوحة التى لا تعنى - فى التحليل الأخير - شيئًا، على حين يعتبر اللجوء إليها لونًا من الإفلاس يعكس جهلاً فادحًا، هذا - كله - فضلاً عن التمترس فى أسئلة الحوار - وراء ترسانات من الأقوال المقتبسة والاستشهادات، بحيث أصبح من المألوف فى حوارات هؤلاء أن ترى عبارة تقول - مثلاً: «يقول برناردشو.. كذا وكيت»، ثم يأتى بعد هذه العبارة طابور من الأفكار السطحية، والجهالات الفادحة، وبحيث يصبح الاقتباس هو بمثابة القاطرة التى تسحب وراءها طابور عربات محمل بالتفاهة!!

على أية حال فما هذا سوى هامش، دفعنا إليه دخولنا إلى قضية (الحوار) من البوابة الذهبية للحوار (المحفوظى/ النقاشى)، وهو عمل رفيع المقام، عظيم الشأن!

وقد أغرانى تأمل جوانب هذا العمل الكبير بالنظر إليه عدة مرات من مختلف

المستويات والزوايا، فقد قرأته مرة للتعرف على مضمونه، وقرأته مرة لدراسة تقنية الكتابة، وهى ـ بالمناسبة ـ عند الكاتب، والناقد، كتابة سهلة معجزة كما اعتدنا من أيهما. ثم درست هذا النص/ الوثيقة فى إطار ما يعرف بمذهب الحوار، أو علم الحوار، للإحاطة بحجم التفرد الذى يمثله فى إطار قواعد وأركان هذا العلم.

الحوار هو فن قديم جدًا، وأبدع من أبدع فيه هم الإغريق، وتلقب حضارة الغرب ـ طبقًا لذلك ـ بحضارة الحوار. . وبخاصة أن فلسفة أفلاطون هى عبارة عن حوار فى مجملها.

ومازال كل نقاد الغرب وعلمائه ينظرون بنفس الطريقة إلى تحليل وبناء الأفكار التى يفرزها العقل الغربى، لدرجة أن الفيلسوف والرياضى البريطانى زميل برتراند راسل (ألفريد نورث وايتهيد) قال: «إن كل الفلسفة الغربية هى عبارة عن هوامش لأفلاطون»!!

والحقيقة أنه يلزمنا كيما نتعرض لحوار محفوظ/ النقاش فى هذا الإطار، أن نستخدم زاويتين فى النظر إليه.

الزاوية الأولى، هى ما يعرف باسم (تحليل الخطاب)، وهى نظرية ترى أن اللغة لا تتم بمعزل عن المخاطبين، وأن النص له علاقاته وأبعاده الاجتماعية.

وطبقًا لهذه النظرية فإن (تحليل الخطاب المحفوظى) فى هذا الكتاب/ العلامة ينبنى على النظر لأى عمل لنجيب محفوظ بوصفه فقرة فى سياق، وذى علاقة ديناميكية مع المحيط السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى من جهة، ومع التركيب النفسى والمزاجى الشخصى للكاتب، أو ـ أخيرًا ـ مع الرؤية الفكرية الذاتية للناقد صاحب الحوار!!

وليس هذا «التنظير» بعيدًا أبدًا عما ورد فى النص، أو هو يأتى فى إطار المحاولة المعتادة من نقاد هذا الزمان لتلبيس المقولات النقدية بالإكراه على وقائع وعبارات النص الأدبى. .

بل إنه ـ بالفعل ـ ضمن إشكاليات طرحها هذا الحوار فى النص نفسه. .

فلقد تعرض الأستاذ نجيب محفوظ إلى نظرة الدكتور لويس عوض إلى أدبه، واتهامه بأنه لم ينصف ثورة ١٩١٩ كما يجب، كما تعرض لنقاد اليسار الذين نظروا للثلاثية على أنها تمثيل لمجتمع الطبقة الوسطى، لم تظهر فيه عناصر تنتمى لقطاعات الفلاحين والعمال، وكان أن ذكر الأستاذ محفوظ ـ فى هذا الإطار ـ أنه أديب وليس مؤرخًا، وهى إجابة يمكن أن تفتح الكثير من أبواب المناقشة، وبخاصة أن الأستاذ رجاء النقاش ـ نفسه ـ قد تناول الثلاثية فى دراسته المرجعية (أدباء معاصرون) منذ ثلاثين سنة، بمدخل التحليل الاجتماعى، وإن كان قد حرص على تبيان مقتضيات العمل الفنى التى تمنعه بالقطع من النقل الحرفى لمفردات الواقع حوله، أو حرصه على الانحياز لشريحة أو قوة اجتماعية، ومن ثم تمثيله لها فى أعماله، بغض النظر عن ضرورة هذا التمثيل ودقته، وبحيث يتحول العمل الفنى إلى خطاب تقريرى، زاعق، وهو ما يخرج به ـ تلقائيًا وفورًا ـ عن حدود ما هو (فن)، ويدخل به إلى حدود ما هو (تهييج سياسى)!!

حوار نجيب/ النقاش حول هذه القضية ـ إذن ـ يأتى تواصلاً مع حوار نقدى قديم، ثم هو يأتى فى إطار نظرية (تحليل الخطاب، بما تشمله من إقرار لفكرة أن اللغة لا تتم بمعزل عن المخاطبين).

. . . . . .

ومن جهة أخرى، فإن الطريقة التى عكس بها بعض الأدباء والنقاد صدمتهم لشهادة نجيب محفوظ من خلال حواره مع رجاء النقاش، تأتى ـ فيما يبدو ـ وكأنها انعكاس لأفكار بنيوية كتلك التى تبناها «إميل بنفيست» فى سبعينيات هذا القرن من خلال سِفره المهم (مشاكل فى علم اللغات العام) الذى أحدث ضجة كبيرة فى الأوساط الثقافية الأنجلوساكسونية.

وتقوم تلك الأفكار على أن اللغة (سواء كانت منطوقة أو مكتوبة) ماهى إلا حوار موضوعى، فى إطار سلسلة من المدلولات بصرف النظر عن قائلها أو الموضوع الذى تدور حوله.. والحوار بهذا المعنى هو اعتبار اللغة لحظة نطقها، أو لحظة الإدلاء بها، من دون أن نأخذ فى الحسبان كونه صاحب الكلمة أو

قائلها، أو هو محاولة لتجريد اللغة من أية عناصر خارجية، حتى نستطيع أن نعالجها بحرية!!

. . . . . .

لقد مال بعض الأدباء والنقاد إلى تبنى هذه الفكرة فى التعامل مع النص/ الشهادة لنجيب محفوظ ورجاء النقاش، فعزلوا تركيب نجيب محفوظ الشخصى والمزاجى عن حسبة النظر إلى النص، وحاسبوه بمنطق أنه بيان صادر عن اللجنة المركزية لحزب ثورى تحت الأرض، على الرغم من أن نجيبًا لم يدع يومًا أنه ينتمى لغير المربع الذى أفصح عن انتمائه له بقوة فى شهادته الحوارية مع رجاء النقاش.

كما حاول هؤلاء عزل رجاء النقاش بتركيبه الفكرى عالى التعقيد، وميزانه النقدى الذى لا يميل قيد شعرة، تحت وطأة الارتباط الأيديولوجى، أو السياسى.. وذلك حين نظروا إليه وكأنه شريك فى عملية شبه عسكرية هدفها تحرير نجيب محفوظ من قبضتهم، وإعادة إنتاج مقولاته بوضوح أكبر وبقوة أكبر، تتيح فهمًا أشد عمقًا لأدبه، وتستجلى المنابع التى جاء منها هذا الأدب.

ثم حاول هؤلاء عزل (أدب نجيب محفوظ) من جهة، و(شهادته الحوارية) من جهة أخرى عن التطورات فى المحيط السياسى والاجتماعى والثقافى، التى شهدتها النطاقات المحلية والإقليمية والدولية، والتى تجعل من صرخاتهم المنادية بالحكم على النص بمرجعيات فكرية ماضوية، هى بمثابة محاولة لخلع النص من سياقه الزمنى والسياسى!!

ولعل الأستاذ نجيب محفوظ قد لمس هذه الإشكالية ـ كذلك ـ فى وثيقته مع رجاء النقاش حين ذكر أن: «التطورات التى حدثت فى العالم مؤخرًا ألغت الفروق الواضحة بين الشرق والغرب، واليمين واليسار، وجرى تداخل على نطاق واسع من المبادئ لدرجة أصبحت معها الفروق الفاصلة شكلية.. فمن الممكن أن تتجمع أحزاب مثل التجمع والوطنى والوفد والعمل (بدون الإخوان المسلمين المتحالفين معه) والناصرى، فى حزب واحد، لأن تصورهم ـ جميعًا ـ

للحكومة أو نظام الحكم واحد.. وهو الحكم المدنى»!!

.....

وبالطبع فإن الاستمرار فى تناول هذا النص رفيع المقام، يمكن أن يقودنا إلى مئات الأفكار، إلا أن واحدة منها نحب أن نسجلها قبل أن نختتم هذه السطور، وهى قدرة الأستاذ رجاء النقاش المحترمة والكبيرة على أخذ خطوة للخلف فى هذا الحوار، وترك المساحة كاملة للأستاذ نجيب محفوظ، وهى عملية ـ فى مثل هذا النوع من الحوارات، أو الشهادات ـ تحقق حالة طبيعية واسترسال كاملين فى طرح محفوظ لرأيه ورؤيته، كما تعد ـ فى ذاتها ـ نأيًا عن فرض مقتضيات التصنع والافتعال، والركوب على جناح صاحب الشهادة، وإزهاق روحه بالتواجد الثقيل حوله.

ومع ذلك فأنت تشعر فى كل لحظة وفى كل سطر من سطور هذا الكتاب بالوجود الراقى للناقد الكبير، وتشعر أن وراء كل حرف من شهادة نجيب محفوظ عشرات الأسئلة المعقدة، والمهمة، ثم إنك تشعر برجاء النقاش أيضًا فى عمليات (الاختيار) و(التبويب) الهائلة التى فرز فيها آلاف الأفكار والمعانى، وطرحها أرضية مناسبة جدًا للتحليل، والدراسة والمناقشة..

ليس فقط التحليل، والدراسة والمناقشة..

ولكن ـ أيضًا ـ الحوار!

الحوار الذى يعنى أول ما يعنى أن اللغة لا تتم بمعزل عن المخاطبين، وأن النص له علاقاته وأبعاده الاجتماعية.

وهو ـ كذلك ـ الحوار الذى عمد إلى تحرير الأديب العملاق من محاولة رهط من الناس أن ينصبوا أنفسهم رقباء أو أوصياء على كلماته.. وأفكاره.

**١٣ يوليو ١٩٩٨**

# زينة الحياة

لأسبوع ـ تقريبًا ـ أمضيت ساعات ملأى بحديث صاخب حول الأدب والثقافة مع الدكتور جابر عصفور رئيس المجلس الأعلى للثقافة فى مصر.

والدكتور عصفور ـ فوق قيمته الفكرية والنقدية ذات العيار الثقيل ـ هو واحد من أمتع رواة الشعر العربى بأنواعه ودرجاته جميعًا، وقد أمضيت معه يومًا ـ ضمن هذا الأسبوع ـ فى مدينة برايتون وبصحبتنا الناقد الكبير أحمد عباس صالح، ولم يتوقف طوال هذا اليوم عن تلاوة أشعار امرئ القيس، وبشار بن برد، وأبى الطيب المتنبى، وأبى نواس، ثم عرج من ذلك على أشعار عبد الرحمن الشرقاوى، وبدر شاكر السياب، وصلاح عبد الصبور، وعبد الوهاب البياتى، ثم أغرقنى فى بحار شعر الحداثة برموزه ونجومه الذين نعرفهم جميعًا.

والذى لفت نظرى فى تحليلات الدكتور عصفور العميقة عن هذه الأشعار، هو النزعة (التصالحية) لديه فى التعامل مع ما هو إبداع أدبى، فالرجل يضع يده على مواطن الجمال ويتذوقها، وينظر إليها، كلٌّ فى سياقه التاريخى، وعلى أرضيته الاجتماعية والفكرية المناسبة، وهو منهج نحتاج ـ كثيرًا ـ أن نتمثله سواء في أمور الإبداع أو فى أمور السياسة، إذ سادت لدينا نزعات مواجهة وخندقة غير مرغوبة أو مفهومة، تضع نوعًا من الشعر فى مواجهة نوع آخر، كما تضع جيلاً فى مواجهة جيل من المبدعين، وكأن الاختيار القاطع بينهما والانتماء المطلق لأحدهما هو حتمية واجبة النفاذ، لا تنقع أمامها مواقف البين بين، أو هى فكرة وقضية لا تجدى فيها النسبية!!

وأظن ـ إذا جاز لى أن أخوض كمتلق فى شئون الأدب ـ أن مثل هذه الاستقطابات الحادة تلغى التواصل، وتمحو التراكم فى التراث الإبداعى، وتحيل الجمل الحضارية المتكاملة إلى كلمات متناثرة لا رابط بينها، ومن هنا تأتى أهمية هذه النزعة التصالحية عند ناقد بحجم الدكتور جابر عصفور.

ولم يكن حديث الشعر هو ساحة التصالح الوحيدة فى مشاغباتنا الأدبية

والثقافية مع أستاذ الأدب العربى رئيس المجلس الأعلى للثقافة، وإنما من زاوية غريبة كذلك تناولناها مرة ثانية حين كنا بصدد حديث طويل عن أدب أهداف سويف استغرق منا ساعة مشى فى الهايد بارك.

وقد كان ملخص حديثنا أن تعامل المبدعين من الأدباء العرب مع الحضارة الغربية أخذ مراحل عديدة، فيها معنى المواجهة أو الصراع، أو ظهور مركبات ضعف أو نقص أو قوة واستعلاء على أحد جانبى الصراع، سواء فى مواجهة الطيب صالح (موسم الهجرة إلى الشمال)، أو مواجهة توفيق الحكيم (عصفور من الشرق)، أو فى مواجهة يحيى حقى (قنديل أم هاشم)، وأن جيلاً جديدًا يتمثل فى بهاء طاهر وأهداف سويف قد تصالح مع الغرب، وأصبح جزءًا من منظومته الحضارية (دون أن يفقد شخصيته) من دون عقد أو صراع، وأن هذا التصالح أثمر لنا أدبًا جديدًا رفيعًا يدفع بنا إلى جوهر الإبداع نفسه، والغرق فى تفاصيله، بأكثر من أن يستهلكنا على حواف وتخوم رؤية المبدع النظرية للحضارة الغربية، أو يحشرنا إلى إبداعه عبر بوابة واحدة ليس لها ثان تمثلها هذه الرؤية.

وليست هذه نزعة التصالح الوحيدة التى وجدناها عند أهداف سويف، ولكن نزعة التصالح مع الآخر امتدت لتشمل علاقتها بالرجل، فهى ـ كما أشار الدكتور عصفور فى مناقشة معى أو فى مقدمته التى كتبها لمجموعتها الرائعة «زينة الدنيا» التى صدرت بالعربية مؤخرًا عن دار الهلال ـ لم تقع فى فخ المواجهة مع الرجل، أو الصراع مع قهر الرجل للمرأة، ولكنها فى أحيان كثيرة صورت الرجل والمرأة بأنهما ضحيتان لقهر من نوع آخر تمارسه عناصر السياق الاجتماعى أو التاريخى، أو القيمى عليهما معًا فى آن واحد.

وقد كرر الدكتور عصفور رؤيته هذه فى جلسة مساء اليوم نفسه فى منزل أهداف سويف، فأضاف الناقد الكبير الأستاذ أحمد عباس صالح إليها بعدًا شديد الخطورة والأهمية، وهو أن التصالح الحقيقى الغائب فى الأدب العربى هو التصالح بين المبدع وناسه وأهله، والبسطاء فى وطنه، لأن التصالح مع الحضارة الغربية حاصل من خلال سيادة مناهج الغرب الفكرية والعلمية على كل الدراسات التى يتحصلها المثقف، أما المعضلة الحقيقية فهى وصول رؤيته

الإبداعية إلى ناسه، وهذا ـ بالضبط ـ ما يميز أدب أهداف سويف، وخطابها الإبداعى القادر على النفاذ للناس.. بمعنى آخر فقد ناقشنا ـ على عدة مرات ـ ثلاثة مستويات من التصالح حققتها أهداف سويف (تصالح مع الغرب وحضارته ـ تصالح مع الذات فى علاقة الرجل بالمرأة ـ وتصالح مع الناس الذين يتلقون رؤيتها الإبداعية)، ومن ثم فإن من حقنا أن نفرح بها، وأن نرى فى أدبها بداية تيار وعى شديد الأهمية فى أدبنا العربى، وربما من فرط فرحتنا نصف مثل هذا التيار بالسطر الذى عنون مجموعتها وهو «زينة الحياة».. الأدبية، والإبداعية بالطبع.

**٣١ مارس ١٩٩٧**

obeikandl.com

## قطعة من السماء

لم يعد المثقف الممتلئ بقضية ما، المتوحد مع عناصرها بحيث يصعب أن تفصله أو تفصلها عن بعضهما البعض.. عقلاً لعقل.. قلبًا لقلب.. نفسًا لنفس.. نموذجًا متكررًا أو متداولاً بوفرة فى هذا الزمان!

كما لم يعد هذا النموذج سهل الوجود أو التحقق فيما هو إنسانى، وبسيط، وحقيقى، بمقدار ما أصبح واردًا فيما هو مصطنع، وجعجاع، ومدعى!

.....

منذ سنوات عرفت «فاطمة المعدول» إحدى كوادر هيئة الثقافة الجماهيرية، وزوجة الكاتب الكبير لينين الرملى، وكنت كثيرًا ما أضبط نفسى متلبسًا بالكثير من الاندهاش، والاستغراب، على امتلاء كل ذرة فى فاطمة بقضية الطفل.

كانت تجد باستمرار مدخلاً للحديث عن الأطفال، حتى لو كنا نتحدث عن الأمم المتحدة أو حرب الفوكلاند!!

كانت تفلسفها.. وتنظرها.. وتبلورها.. وتكتشفها مزيدًا من الاكتشاف ببراءة مذهلة، بحيث تصل إلى أعقد الحقائق بأبسط الطرق.

كانت تعيش قمة سعادتها وهى تشرح لك الطريق إلى أن يفهمك طفل ويحبك، أو وهى تفرد أمامك - فى فرح فوار - عشرات الرسوم التى يبدعها الأطفال فى المسابقات التى تقيمها لهم فى قصور الثقافة، أو عندما تحكى لك منطق الأطفال، وطريقة رؤيتهم لعالم الكبار.

كانت فاطمة هى قضية الطفل.. وكانت قضية الطفل هى فاطمة.

.....

وعندما كنت فى إجازة سنوية بالقاهرة، التقطت كتابين جميلين جدًا لها، أحدهما بعنوان: (خطوط ودوائر) من إنتاج المجموعة الثقافية المصرية، لصالح

الشعبة المصرية للمجلس العالمى لكتب الأطفال.. والثانى بعنوان (قطعة من السماء) من إنتاج الهيئة العامة لقصور الثقافة.

ووجدت نفسى أمام مستوى عالمى ـ بحق ـ فى مخاطبة الطفل، وفى تحريض ملكاته الابتكارية على الظهور من دون ولاية.. ومن غير وصاية! وفى بناء نظامه المعرفى أو الوجدانى من خلال كتابة مثقفة صفت روحها ومشاعرها لتصب فى وعاء قضية الطفل ما غيرها.

وأشعر أنها نجحت كذلك فى شرح مضمون أفكارها للرسامين الذين صاحبت لوحاتهم نصوصها، وهرست روحهم، واستخرجت كل ممكناتهم لتوظفها لخدمة قضيتها، بل ووضعت الخطوط تحت جوانب الطفولة فى مواهبهم المبدعة، لتأكيد الارتباط ودعم المعنى.

صلاح بيطار كان شديد التألق (بالأبيض والأسود والذهبى) فى «قطعة من السماء»، وربما استحال عبر رسوماته ـ فى هذا الكتاب ـ طفلاً مبدعًا.. فنانًا، يطلق ـ على الورق ـ جنونًا محسوبًا، طلقًا، بوهيميًا، فى إطار يلمس فى النفس أكثر مناطقها حقيقية، وشفافية، ويعبر تعبيرًا تبادليًا عجيبًا عن نظام معرفى دارس وناضج، ونظام معرفى بسيط ومفعم بالبراءة!!

ونص القصص القصيرة لفاطمة المعدول فى هذه المجموعة بدا ـ هو الآخر ـ كفراشة ذهبية تأخذ بجناحها الموشى يد أطفال مصر، لتعبر بهم إلى عوالم لم يخبروها من قبل، ولتعينهم على فهم بعض حقائق إنسانية جدًا عن مشاعر الغير، واحترام المساحة التى يمثلها (الآخر)..

ولا أريد ـ هنا ـ أن أقوم بتحميل هذه القيمة أكثر مما تحتمل، ولكنها ـ ببساطة ـ الطريق نحو ظهور منتج (بفتح التاء) بشرى.. متسامح وديمقراطى.

وفى (خطوط ودوائر) نجد الرسامة سحر الأمير، قد اختزلت قدرتها الإبداعية لتأتى خطوطها ومساحتها (بالأبيض والأسود) خطوطًا ومساحات طفلة، تتوحد مع النص الجميل وتعكس معانيه وأفكاره!

.....

جاء العملان تعبيرًا عن توحد مثقفة مع قضية (عقلاً لعقل.. قلبًا لقلب.. نفسًا لنفس) لا تستطيع أن تفصلهما عن بعضهما البعض.. كما جاء صافيًا، عاليًا، مضيئين كقطعة من السماء!

**٢ مارس ١٩٩٨**

obeikandl.com

## عن التعليم.. وبريطانيا.. ومسرحية عبقرية

## من يملأ المربع الأبيض

فى جميع دور العرض السينمائية البريطانية، وعلى شاشات جميع محطات التليفزيون يظهر نفس الإعلان.

تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا/ الظاهرة (٤٥ عامًا) يذكر اسمًا معينًا..

ثم تتتابع على الشاشة صور أهم نجوم المجتمع البريطانى: (دافيد سيمان حارس مرمى إنجلترا - وبن إلتون وجون لوملى من أهل الفن - والمذيع جيرمى باكسمان) وكل منهم يذكر اسمًا معينًا.

وبعدها تمتلئ الشاشة بعبارة: (أى منا لا ينسى اسم معلم جيد)!!

.....

هذا الفيلم أنتجه وموله (اتحاد المدرسين البريطانيين) ضمن حملته القومية لاكتساب مزيد من الحقوق الوظيفية والاجتماعية للمدرس، ولجمع التبرعات من أجل رفع مستوى التأهيل المهنى للمعلمين فى بريطانيا.

وهو يعكس - فى الواقع - حجم الاهتمام الذى تحتله عملية التعليم فى الذهن العام فى بريطانيا وعلى عدة جبهات، إحداها هى جبهة حكومة تونى بلير العمالية، التى تضع التعليم فى أول أولوياتها، منذ أن قدم بلير ما يسمى (عهد إلى الأمة) قبل انتخابه، وهو على غرار خطاب العهد الشهير لبيل كلينتون، بل إن الالتزامات التى قطعها كل منهما على نفسه فيما يخص فصول أقل عددًا، ورفع مستوى الأداء، سواء فيما يخص المدارس الحكومية أو الخاصة، يكاد يكون متطابقًا.

وثانى الجبهات هى جهود الاتحادات والجمعيات والنقابات الخاصة بالمدرسين والنظار، التى تدافع - باستمرار - عن أن يكون لوجهات نظرها فيما يخص العملية التعليمية ثقل واعتبار كبيرين.

وثالثها - بالقطع - هى الآباء وأولياء الأمور الذين أصبحوا طرفًا مشتبكًا (عمليًا) بالدور المنوط بهم فى رعاية أداء التلامذة فى المنزل، أو المذاكرة، أو الواجب المنزلى، أو بمحاولتهم هندسة وضع معين لأبنائهم - حسب قدرتهم المالية - من حيث الالتحاق بمستوى أفضل من المدارس، أو باشتراكهم فى الجدل العام حول الموضوع، مسهمين بخبراتهم التى تحصلوها من خلال عملية تربية الأولاد وتعليمهم.

. . . . . .

فى أول خطاباته أمام المؤتمر السنوى لحزب العمال، بعد نصره الكاسح فى الانتخابات البرلمانية العمومية، وهو الخطاب الذى ألقاه فى أكتوبر الفائت، كان أنطونى تشارلز بلير (تونى بلير) يضغط - تمامًا - على فكرة أنه جاء يبلور آمالاً وتطلعات للبريطانيين لأن يصبح بلدهم «منارة»، وأكد - مرة ثانية - أنه لا يوجد سوى التعليم طريقًا لأن تكون بريطانيا «منارة» فى مفرق الغرب!!

من أجل ذلك فقد استمد رئيس الوزراء فى بريطانيا تقليدًا بأن يقابله وزير التعليم دافيد بلانكيت وهو كفيف (فى إشارة من حكومة العمال للاهتمام والفرصة التى تعطيها للمعوقين متى أثبتوا مواهبهم وقدراتهم.. وبالطبع هناك تجمعات واتحادات ومؤسسات وسيطة للمعوقين ترصد مثل هذا التصرف، وتترجمه تصويتيًا فى أى انتخابات..) يقابله أسبوعيًا ، بعد أن كان التقليد البريطانى هو أن يلتقى رئيس الوزراء ومستشار الخزانة - فقط - لقاء شخصيًا أسبوعيًا.

على أية حال فإن دافيد بلانكيت (الذى أسميته طه حسين بريطانيا، تشبيهًا له بوزير المعارف الكفيف الأشهر فى تاريخ مصر) يفصح فى كل يوم عن خطط - جد - ثورية فى مجال التعليم.

ولكن - وهذا هو مربط الفرس - الخطط العمالية لتطوير التعليم، والجدل الحاصل حولها فى البلد، وطريقته، ومنهجه، دفعونى - مرة عاشرة - إلى المقارنة بينها وبين الجدل الدائر حول التعليم فى مصر.

ولقد ترجمت هذه المقارنة نفسها بالنسبة لى فى عدد من النقاط رأيت أن أطرحها أمامكم كأحد محفزات الحوار والمناقشة، التى أرى أنها يمكن أن تفضى بنا إلى بعض المراجعات الضرورية لبعض أفكار سادت عندنا وأصبح لها سمت «المقولات المقدسة» ـ كعادتنا ـ ومن ثم أصبح الاقتراب منها إنكارًا لقدسيتها يصل إلى درجة الكفر، أو تجاهلاً لإطلاقيتها يصل ـ ويالللهول ـ إلى الرغبة فى مناقشتها أو بحثها!!

وقد كانت هذه النقاط كالتالى:

١ ـ أن مناقشة موضوع التعليم فى مصر، تم تحميلها بمعان وطنية وتعبوية أكثر من اللازم، وهى ـ على أية حال ـ أصبحت عادة مرعية فى كل المجالات فى مصر، إذ تستعين عليه الأطراف المعنية، وغير المعنية، بهذه الترسانة من الغطاءات الوطنية، بحيث إذا اختلفت معها، أو حتى تمايزت عنها، أصبح ذلك خروجًا على الخط الوطنى، وتعبيرًا عن عدم الالتزام، وأحيانًا عدم الولاء، والغريب أن الجهة الحكومية المسئولة عن التعليم وهى (وزارة التعليم) لم تكن هى ـ فقط ـ التى استخدمت مثل هذه الغطاءات، وإنما شاركها فى هذا الجميع، بما فيهم أولياء الأمور!!

إنها ملاحظة أولية قبل الولوج فى الموضوع، وهى تتعلق بنوع الجدل العام الحاصل فى مصر، والذى أصبح يقوم على التخندق وتقديس النصوص غير المقدسة، وعدم الثقة، والرغبة فى إحراز الأبناط وتسجيل النقاط على جثة الاعتبارات الموضوعية.

الناس ليس لهم شأن، ولا يجب أن يكون لهم شأن حول «علاقة التعليم بالأمن القومى»، حتى لو كانت المقولة صحيحة، وهى صحيحة بالفعل.

الناس مهتمون ومهمومون بحقائق الحياة فى بعدها الأولى والبسيط، ولا يعنى هذا أنهم ليسوا وطنيين، ولكنه يعنى أنهم ليسوا «صناع سياسة»، والمفترض أنهم ينتخبون صناع السياسة وفقًا لقدرة هؤلاء على تقديم القرارات والبدائل والسياسات التى من شأنها تلبية الاحتياج الداخلى اليومى والحياتى لدى الناس،

ووفقًا لبرامج حزبية معلنة يتم على أساسها الانتخاب.

(نحن نريد أن نعلم أولادنا)!!

هذه جملة بسيطة ومفهومة.

و(نحن نريد أن نعلم أولادنا جيدًا)!!

هذه ـ أيضًا ـ جملة بسيطة ومفهومة.

(ما الذى نحتاجه لكى نحقق هذا الهدف؟!)

هذا ـ كذلك ـ سؤال بسيط ومفهوم.

وإجابته دائمًا ما كان يذكرها لى الدكتور لويس عوض: برفع مستوى الكوادر (المتعلمة)، ورفع مستوى الكوادر (المعلمة)!

حتى هذا الحد والموضوع مفهوم جدًا.

خدمة يحاول الناس أن يتحصلوها بمستوى مناسب عبر المدارس الحكومية أو المدارس الخاصة، كما فى أى مكان فى العالم، والنهوض بها أو بالمعايير السائدة فى ساحتها لا يخرج عن رفع مستوى الكوادر المتعلمة، ورفع مستوى الكوادر المعلمة.

أما التحميل الزائد بالاعتبارات الوطنية، فهو يصبح ـ فى هذا السياق ـ أمرًا غير مفهوم، وإلا أصبح علينا أن نحمل حصولنا على مياه الشرب النقية من الصنبور بنفس المعانى الوطنية، وبحيث يمتلئ المرء حماسًا وتتسع فتحات أنفه تأججًا وسخونة إذا ما فتح الصنبور، فتدفق الماء ـ عبره ـ سلسالاً نقيًا!!!

نحن نريد أن نعلم أبناءنا، لا أن نذيع لهم أناشيد وطنية وهم ذاهبون ـ فى كل يوم ـ إلى المدرسة.

لا يجب أن يكون كل شىء فى حياتنا تحت لافتة (حياة أو موت).. التعليم حياة أو موت، وشهادة الثانوية العامة.. حياة أو موت، والوظيفة.. حياة أو موت.

ألا يمكن أن تكون حقائق الحياة اليومية عاكسة لمعنى الحياة البسيطة، والاحتياج البسيط، والإنجاز البسيط؟!

لماذا كل شيء.. عملاق، ورهيب، وضخم، ووطنى جداً؟!

إن مثل هذا التحميل الزائد لحقائق الحياة البسيطة يؤدى إلى إحدى نتيجتين:

الأولى: أن يصبح أبناؤنا إطلاقيين - بالتبعية - فى نظرتهم لأنفسهم، أو نظرتهم للآخرين، فهم - طبقًا لهذه النظرية - إما آلهة للأوليمب، مغرورون، ممتلئون بأنفسهم، محتقرون للآخر، شاعرون بأنهم - كذلك - غير قابلين للنقد أو التناول.. أو هم فتافيت بنى آدمين، مسحوقون، دونيون، شاعرون بأنهم - دائمًا - قابلين للعصف بهم أو بقدراتهم.

وخطورة سيادة هذا النوع من الأفكار عند الشباب أنه يحول حياتنا كلها إلى كاريكاتير قائم على المبالغة والتطرف، والنزوع إلى الغلو، وبعيد عن المواءمة، والتوازن، ومحاولة تحقيق أكبر نطاقات الإجماع عن طريق المجادلة الديمقراطية والإقناع.

وثانى عيوب هذا التحميل الزائد لحقائق الحياة البسيطة بمعان وطنية أو تعبوية، أن التقليد أو العادة يتنقلان إلى الجمهور المكون من الآباء وأولياء الأمور، أو أصحاب المدارس الخاصة أو رجال الأعمال أو موظفى الوزارة، أو حتى الرسميين فى المستوى الأول فى مطبخ الدولة، فتجد من يغمزك، أو يلكزك فى جنبك، مشيرًا (فى تفسير موقف الوزير، من أية نقطة خلاف أو تقاطع بينكما) بأن الوزير كان مسئولاً عن منظمة الشباب، وهو من جماعة أو مجموعة طليعة الاشتراكيين، وأنه لذلك يميل إلى كذا، أو يحب «كيت»!!

وكأن الموضوع متروك للتفضيلات الشخصية، ولا يمثل سياسة مجلس وزراء، وحزب ودولة.

ولكن الخطأ ليس خطأ هؤلاء الذين يحاولون تحميل سياسة الوزير أو الوزارة بما لا تطيق أو تحتمل، ولكنه خطؤنا - جميعًا - يوم انخرطنا فى دفع كل الأشياء نحو وصفها بالوطنية، والقومية، وحين وسعنا مفهوم (الأمن) ليشمل كل شيء،

فصرنا نقول (الأمن الغذائى) ثم (الأمن الثقافى) ثم (التعليم والأمن القومى)، وأكرر ـ رغم صحة المقولة ـ فإن كثرة ترديدها يدفع بنا ـ من دون أن نقصد ـ إلى نتائج لا نريدها، ربما كان من أهمها ـ فى هذا السياق ـ رفع مستوى التوتر العام، وهو ما تفرضه (التعبئة) بطبيعتها، فضلاً عن خلق الاعتياد لدى أجيال كاملة من الشباب فى وصف وإسباغ صفة الوطنية على كل شىء، وهو الأمر الذى يمكن أن نحسه ونعبر عنه ونقدمه لكل من حولنا، بأن نعينهم على أن يحيوا حياة أجمل، وبدون أن يظهر لديهم هذا النزوع المبتذل والسخيف جدًا إلى المزايدة الوطنية بين بعضهم البعض، والذى يبدأ بأن يصرح أحدهم بأنه «يحب مصر» فيجد الآخر نفسه فى موقف يفرض عليه أن يقول أنه «يموت فى مصر»، ثم لا يجد الثالث مناصًا من أن يؤكد أنه «يتمرغ فى ترابها»،ثم يحوط هذا الابتذال كله أحاديث عن «زرعها» و«نيلها» و«سماها» لتحقيق الثقل والمصداقية معًا!!

٢ ـ يلفت نظرى، ولعله قد لفت نظركم، فى أثناء الجدل الطويل العريض حول التعليم فى مصر، سيادة ما أسميه (الاختيارات الحدية)، فكل واحد فينا متى دخل ساحة نقاش عام تجده ممتلئًا بزاوية واحدة، يعرف عنها شيئًا أو سمع عنها من دون أن يتعمق فى منابعها أو خلفياتها، ويظل يصرخ بها، فاقدًا أى قدر من «كلية» النظرة، ومختزلاً الموضوع كله إلى هذه الزاوية، ومصرًا على حشر الجميع فى ساحتها، لأنها الساحة الوحيدة التى يعرف عنها.. تظلله فى هذا السلوك معتقدات عجيبة عن أن (عدم المعرفة.. عيب).. و(عدم الاشتراك فى أى نقاش.. هو ضرب من ضروب قلة الأهمية وعدم الحضور)!!!

على أية حال، كنا نسمع أثناء النقاش العام من يطالب بالكف عن (الواجبات المنزلية) تمامًا وعلى الإطلاق، أو التركيز على (الرياضة) بشكل كاسح وكامل، أو إبداء التذمر ـ فى ذاته وإلى نقطة الحد الأقصى ـ لأنه أصبح من لزوميات أحاديث الصالون أو التليفون فى مصر، بغض النظر عن وجود أسباب وجيهة للتذمر من عدمها!!

والحقيقة أن ذلك ينقلنى مرة أخرى إلى بريطانيا.

ففى آخر خطاب لجون ميجور رئيس الوزراء البريطانى المحافظ السابق أمام المؤتمر السنوى لحزب المحافظين، الذى عقد فى بورنموث، يوم ١١ أكتوبر ١٩٩٦، قال: «لقد أخبرتكم فى السنة الماضية عن عزمى على استعادة الرياضة، وبالذات الرياضة الجماعية لوضعها المعتاد فى المدارس البريطانية.

ولهذا صممت على تكوين فريق من سفراء الرياضة من الأبطال فى كل مجال فى الماضى والحاضر، برئاسة أسطورة الكريكت، الرجل لكل العصور سير كولن كودرى، لزيارة المدارس والتحدث إلى التلاميذ والمدرسين والنظار والآباء لفهم احتياج الناس، وإشاعة جو من الحماس فيهم للتجاوب مع المبادرة، وسوف تضم هذه اللجنة، التى أنشئها بالتعاون مع المجلس الأعلى للرياضة، عناصر أكاديمية كذلك. أنا أريد أبناءنا أن يستمتعوا بالرياضة، وسوف يستمتعون أكثر إذا لعبوا ليكسبوا».

هذا الموقع الذى تحتله الرياضة فى اهتمام رئيس وزراء بريطانى سابق، (كان فى الحكم وقت هذا الخطاب) أمر يدفع إلى التأمل، ثم هذا الموقع الذى تحتله الرياضة فى وسط عملية التعليم عند رئيس الوزراء نفسه أمر لافت للانتباه، ثم ـ أخيراً ـ هذا الموقع الذى يحتله موضوع الكسب فى مزاولة الرياضة أمر هام، لأنه يتعلق بتربية إرادة النصر فى نفس الناس، حتى لا يشبون مهزومين من الداخل، محبطين، ويشيعون فى حياة البلد ذلك الشعور المتخاذل الكئيب.

أما تونى بلير رئيس الوزراء الحالى/ الظاهرة فقد قال فى خطابه الذى أشرت إليه فى بدء هذا المقال أن «بريطانيا تحتل المرتبة رقم ٣٥ فى التعليم فى العالم من حيث استيفائها للمعايير، ومن ثم فهى الدولة رقم ٣٥ فى العالم!!.. وإذا أردت أن أجعل منها ـ كما أنا مصمم ـ منارة فى مدخل القرن الجديد ومدخل الألفية الجديدة، فلابد أن أعطيها أحسن تعليم فى العالم».

لماذا أذكر المثلين؟!

أذكر المثلين لأقول إن كلاً من الزعيمين طرح ما يشاء بخصوص التعليم، ثم دفع النقاش العام بشأنه فى المؤتمر السنوى للحزب، وأول شروط النقاش العام فى بلد مثل بريطانيا أن يتعود الجميع كيف يصوغون أفكارهم واحتياجاتهم

ووسائلهم فى صيغ يشتركون فيها جميعًا وهى قيد التحقق والتخلق، لا أن يطرحوا على بعضهم البعض تعليمات واجبة التنفيذ من ساعة طرحها!!

بريطانيا ـ اليوم مثلاً ـ تعيش جدلاً كبيرًا جدًا حول المعايير التى طرحها دافيد بلانكيت لموضوع الواجب المنزلى.

لقد أصدر دليلاً يوم ٢١ أبريل يقول فيه إن البحوث الإمبريقية (التجريبية) أثبتت أن الواجبات المنزلية المنتظمة تحسن مستويات الطلبة وتؤدى إلى نتائج أفضل، ولهذا فقد حدد الدليل المدد التى يقترحها لتدريب التلامذة، وللواجبات المنزلية لهم يوميًا، ورأى أن التلامذة البالغين (خمس سنوات) ينبغى أن يتحصلوا (١٠ دقائق قراءة، و١٠ دقائق واجب منزلى يوميًا)، ومن سن (٦ ـ ٧) ينبغى أن يتحصلوا (٢٠ دقيقة قراءة، و١٠ دقائق واجب منزلى)، ومن سن (٨ ـ ٩) ينبغى أن يتحصلوا (٢٠ دقيقة قراءة، و٣٠ دقيقة واجب منزلى)، وفى المدارس الإعدادية (١٢ ـ ١٣) يجب أن يتحصلوا (٤٥ دقيقة قراءة، و٩٠ واجب منزلى)، وللمدارس الثانوية (٩٠ ـ ١٢٠ دقيقة قراءة، وساعتان ونصف واجب منزلى).

هذه هى ملامح خطة طه حسين بريطانيا لتطوير التعليم من زاوية (الواجب المنزلى) والتى ضمنها دليله المكتوب المطبوع.. وقد لاحظت بشأن هذا الدليل وبشأن الجدل البريطانى العام حوله ما يلى:

* أن دافيد بلانكيت وزير التعليم، ضغط وأكد أن الدليل صدر للتشاور، ولكى يكون علامة اهتداء، وليس لإجبار إدارات المدارس أو أولياء الأمور على اتباع مافيه!

* أن قادة نقابة المعلمين شكوا ـ علانية ـ من الطريقة التى أعلن بها بلانكيت خططه (حتى مع تأكيده على أنها ليست إجبارية) إذ قال بيتر سميث السكرتير العمومى لاتحاد المدرسين البريطانيين: «لا أحد يشكك فى أهمية الواجب المنزلى، والحكومة على حق فى تأكيد مسئولية الآباء عن أداء أبنائهم للواجب المنزلى، ولكن عدم مشاركتنا فى الإعلان عن هذه السياسة يوحى بأن النظام

التعليمى الكلى للبلد يمكن أن يدار من وايت هول (حى الوزارات فى بريطانيا مثل لاظ أوغلى فى مصر قديمًا).

* أن طرح مثل هذه الأفكار أو السياسات يأخذ فى اعتباره الظروف المختلفة للناس حتى فى أدق تفاصيلها، حتى لا يكلف الجمهور بما لا يستطيعه، ومن منطق أن السلطة التنفيذية خادمة للناس (ولقد كان بلير قبل انتخابه يقول: «نحن نريد فرصة لنخدم»!). . ولهذا فقد اقترن هذا الإعلان، بإعلان آخر يقول أنه تم إنشاء ثمانية آلاف مركز للمذاكرة سواء فى المدارس أو فى المكتبات العامة، حتى يستعملها الطلبة الذين يعيشون فى منازل مزدحمة أكثر من اللازم، ولا يجدون أماكن للاستذكار أو أداء الواجب المنزلى.

ولا تكتفى الإدارة بذلك، بل إنها أيضًا تحدد الطريق الذى تم تمويل هذه المراكز به (٢٠٠ مليون جنيه إسترلينى من اللوترى القومى «اللوتارية أو الياناصيب»)، وهذا ـ كله ـ فوق ١٨٠٠ مركز استذكار موجودين ـ الآن ـ بالفعل ويمولون من وقف الأمير تشارلز، أو من مؤسسات العمل الخيرى!

* أن طرح الواجب المنزلى، وهو المجهود الدراسى الذى يؤدى فى غير أوقات المدرسة جاء متضمنًا الفن، والرياضة، والموسيقى والنشاطات، إذ ينظر إلى هذه المسائل ـ كما ذكرنا ـ بوصفها جزءًا من جوهر العملية التعليمية.

* أن الجدل حول الموضوع لم يأخذ شكل النفى المتبادل بين فرقاء، بل كان يسعى إلى استفادة كل طرف من أفكار الآخر، وفى هذا ـ مثلاً ـ يقول دافيد بلانكيت: «نحن مهتمون بالنظام الذى يعمل جيدًا، ونقترب مما يعمل جيدًا، فإذا كانت مدارس القطاع الخاص تدرس قواعد أكثر، وثبت أن هذا يرفع مستوى تلامذتها، فلماذا لا أفعل الشىء نفسه لهؤلاء التلامذة وأولياء الأمور الذين لا يطيقون مصاريف المدارس الخاصة».

* أن أحدًا لم يحاول إفحام أو إسكات الآراء المناهضة لأفكار الحكومة، بل بالعكس، بعض هذه الأفكار تم استقباله باهتمام. . بل وباحتفال كبير، مثل رأى دافيد هانسون مدير التعليم فى الاتحاد التعاونى للمدارس الإعدادية الذى قال:

«يجب أن ننحى جانبًا فكرة تحديد ساعات للواجب المنزلى، فهذا لا قيمة له، ولكن المهم هو النوعية وتحقيق الهدف».

* أن الجهات العامة التى لمسها الجدل حول التعليم لم تتأفف أو تستهول أو تستغرب ذكرها، بل كان ممثلوها ـ باستمرار ـ يقومون بتسجيل ما يخصهم فى هذه المناقشات، فإذا ذكر دافيد بلانكيت أن ٥١٪ من الأطفال البالغ أعمارهم ١٠ سنوات يشاهدون التليفزيون يوميًا لمدة ثلاث ساعات أو أكثر، وأن ٥٥٪ من الأطفال البالغة أعمارهم (١١ ـ ١٢ عامًا)، يشاهدون التليفزيون لنفس الفترة يوميًا، وأنه من الضرورى ـ بناءً على هذا ـ أن تتحدد أوقات الواجب المنزلى.

وطبعًا تحديد عدد ساعات مشاهدة التليفزيون بالخصم منها لصالح الواجب المدرسى، هو أمر يقلل ساعات التعرض، وبالتالى يحدد الرسائل الإعلانية فى عدد أقل يستقبله كل متلق من هؤلاء التلاميذ يوميًا، ومن ثم يؤثر فى نمط الاستهلاك أو الرواج بدرجة معينة، ومع ذلك لم نسمع صوت تلبيس الحق ثوب الباطل، أو محاولات لخلط الأوراق تهاجم المقترحات التى صدرت لأسباب (تعليمية) بسبب تعارضها مع اعتبارات (مصلحية)، كما لم نر أصحاب المصالح المضارة يتدثرون فى هجومهم بغطاء يدعى الكلام فى موضوع الواجب المنزلى لحماية مصالحهم التى لا يفصحون عنها، كما هى العادة فى مصر المحروسة.

وأخيرًا فإن هناك ما يسمى العقد أو الكونتراتو بين أولياء الأمور والمدارس، وسوف يتم تسجيل موضوع الواجب المنزلى فى المدارس التى ستأخذ به فى عقود التلاميذ.

وفكرة التعاقد ـ فى ذاتها ـ مسألة رمزية فيها معنى الالتزام المتبادل، وهو معنى بطبيعته يبتعد عن معنى الحدية الذى أشرنا إليه.

. . . . . .

هذا المثل الذى عرضناه لآليات مناقشة تفصيلية صغيرة فى العملية التعليمية فى بريطانيا كان كافيًا جدًا للإشارة إلى خلوه ـ تمامًا ـ من «الحدية» التى تعد السمة الأكثر وضوحًا فى أى نقاش عام فى مصر، وبالذات حول التعليم، وإنما رأينا

كيف بنى كل طرف رأيه على قاعدة نسبية، واقترب بالحوار من الطرف الآخر ليناقش ويتبين.

والحق أن وزير التعليم المصرى ـ بالذات ـ كان أكبر المتمردين على فكرة (الخيارات الحدية) فى مناقشة واقع أو مستقبل التعليم فى مصر المحروسة.

ولقد حاول أن يتحاور مع كل الأطراف المعنية فى قلب الجدل، وحتى من هم على حوافه.. ولعل اقترابه ـ مؤخرًا ـ من مناقشة رجال الأعمال كان خطوة صحية وصحيحة فى هذا السياق.

بقى ألا يعتمد المجتمع على المبادرة الشخصية لوزير، ولكن أن يتراضى على أعراف وتقاليد راسخة بشأن طريقة ومعنى النقاش العام.

.....

٣ ـ «المشاركة» مفهوم أظنه يجب أن يناقش فى ظل المؤشرات التى ذاعت من خلال الجدل حول التعليم فى مصر.

ودعونى فى البداية أشير إلى مسرحية كتبت عنها فى بداية هذا الكتاب، وهى تعرض ـ الآن ـ على مسرح «ويندهام» فى الوست إند بلندن، بعنوان: (آرت)، وهى للمؤلفة الإيرانية ياسمينا رضا، ومن ترجمة كريستوفر هامبتون، وهى تحكى عن ثلاثة من الأصدقاء اشترى أحدهم لوحة عبارة عن مربع أبيض تمامًا بمائتى ألف جنيه إسترلينى، ودارت بينهم محاورات ومشاحنات وشجارات حول أهمية هذه اللوحة من عدمها.

والحق أن فكرة المسرحية تقوم على طرح نقطة افتراضية، تمثل فراغًا مساحيًا أو زمنيًا بحيث يؤدى هذا الطرح إلى تمايز مواقف ومقولات وأفكار الأطراف حولها، وبما يجبر هذه الأطراف على إبراز آرائها الحقيقية ومشاعرها الحقيقية تجاه بعضهم البعض.

بعبارة أخرى، كانت هذه النقطة الافتراضية هى لوحة «المربع الأبيض»، وأصبح على كل من الأصدقاء ـ حسب موقفه وأفكاره فى اللحظة ـ أن يبرز

تمايزه ويبرره، وكأنه يملأ الفراغ المساحى لهذه اللوحة بنفسه، وبحيث كان التقاطع والشجار بين الأصدقاء الثلاثة هو حول وجهة نظر يريد كل منهم أن يملأ هذا الفراغ بها، وهى التى تمثل رأيه فى اللوحة، وكذلك كان كل فرد من الجمهور يريد أن يملأ الفراغ المساحى أو اللوحة البيضاء، وهى ليست ـ بالضرورة ـ اللوحة الموجودة فى العمل المسرحى، ولكنها قد تكون لوحة أكبر وأكثر اتساعًا، تشمل حياة كل فرد من أفراد هذا الجمهور منفردًا، أو حياة الجمهور على بعضه!!

على أية حال لقد كانت هذه المسرحية من إخراج ماثيو وارشس، مثلاً شديد الانطباق على حالة النقاش العام عن التعليم فى مصر، إذ بدا التعليم هو ذلك المربع الأبيض الذى ينظر إليه الكل بإطلاقية حول رأيهم أو تقييمهم لما يسمى (العملية التعليمية)، ويطمح كل فرد أن يملأ فراغ اللوحة برأيه هو فقط، أو يتركها بيضاء ويدعى أنها تمثل رأيه على هذا النحو.. لكن أحدًا لم يحاول التجاسر على الاشتراك مع الآخرين فى ملء الفراغ، وإبراز قيم الكتلة والملمس والنور والظل والحركة.

الإبداع فى الفن التشكيلى فردى..

ولكن الإبداع الاجتماعى ـ بحكم التعريف والتسمية ـ جماعى!!

لقد دخل الجميع مناقشة التعليم فى مصر ـ كما ذكرنا ـ حاملين شعارات ومقولات مقدسة، ولم يتفهموا معنى المشاركة فى تشكيل القرار السياسى بالرأى.

انظروا ـ مرة أخرى وأخيرة ـ إلى تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا وهو يعلن أن عام ١٩٩٨، هو عام الإنترنت فى بريطانيا، وهو عام الإشارة إلى أهمية الإنترنت فى التعليم فى بريطانيا التى تعد عنصرًا محوريًا فى باقة السياسات التعليمية التى يطمح تونى بلير ـ عبرها ـ إلى جعل بريطانيا «منارة»، وبمقتضاه أصبحت ستة آلاف مدرسة بريطانية حتى الآن مرتبطة بشبكة الإنترنت، وينتظر أن تصل إلى ١٧ ألف مدرسة فى نهاية ١٩٩٨، ثم بالارتباط بالشبكة القومية للتعليم المزمع

إنشاؤها، سيصل عدد المدارس ذات الصلة بهذا النظام التعليمى المتفوق إلى ٣٢ ألف مدرسة فى عام ٢٠٠٢.

هذا يحقق طريق تونى بلير للنهوض بالتعليم الذى حدده «بالتقنية» و«المعلمين» لأنه من جهة أخرى سيؤدى إلى تزويد التلامذة بالمهارات التى يحتاجون استخدامها فى الألفية المقبلة.

وبعبارة أخرى.. سيتحقق النهوض بالكوادر «المعلمة» والكوادر «المتعلمة».

ولكن أهم ما يتضمنه هذا المسعى الجاد عند تونى بلير، هو اشتراك كل من القطاع الخاص والقطاع العام فى خلق هذه الشبكة التقنية المعقدة للاتصالات التى تربط أجزاء البلد وعقول مواطنيها من كل الأعمال.

اشتراك يعى معنى المشاركة..

وعمل ـ بانسجام ـ فى ملء الفراغ المساحى للوحة «بيضاء».

عمل يوحى أول ما يوحى بحجم الاهتمام الذى تمثله عملية التعليم فى الذهن العام فى بريطانيا، وبمجمل الآليات التى احتدم النقاش حولها، أو حول أية قضية عامة أخرى.

.....

ومرة عاشرة لا أعتذر عن المقارنة بين مصر وبريطانيا، ولا أقبل الحجة/ القانون (أن المقارنة لا تكون إلا بين وحدات متكافئة)، لأننى قارنت من زوايا لا تحتاج لإعمال قواعد هذه الحجة/ القانون، ولأننى أعرف أننا كنا فيما يخص هذه الزوايا بالذات ـ فى أزمان أخرى ـ ندرك كيف نتحاور، ونعرف كيف نتشارك، ونعرف كيف نعلم، ونعرف كيف نتعلم!!!

**٢٦ أبريل ١٩٩٨**

## عن الغردقة.. الاسكواش.. البطولة.. الأهرام:

## فى معنى الوطنية

لقد أصبحت الوطنية عند البعض ظاهرة صوتية، وبديلا عن ما يمكن تسميته (الفعل الوطنى).. وتعمد هؤلاء انتهاك دلالاتها وتغييرها وفقا لمصالحهم الآنية جدا.. أو رغبتهم المستعرة في الاعلان عن الذات.. و(تكفير) الآخرين فى وطنيتهم، أو دفعهم (للهجرة) من ساحات يستحقون فيها مكان الصدارة لا جدال!!

اعتنيت ـ كثيرًا ـ بأن أدرس لطلابى فى كلية الإعلام طوال السنوات الماضية، ملامح موجزة لعلم الدلالات، لأننى كنت أرى فى هذا العلم المختص بدراسة المعانى والرموز، والتى يتقاسهما طرفا عملية الاتصال الجماهيرى (المرسل) و(المستقبل)، وسيلة للتعرف على نوع وحجم التغييرات التى تطرأ على اللغة (بوصفها كائنًا حيًا يتغير ويكتسب فى كل يوم مضامين وأبعادًا جديدة.. وبوصفها مدخلاً إلى دراسة التغيرات التى تطرأ على الناس والأعراف والمجتمع، وذلك الكرنفال الثقافى الصاخب حولنا بالتبعية، وبالضرورة).

وعلم الدلالات يفترض ـ لكى يحدث الاتصال ـ أن يتم تداول الرسالة الاتصالية أورد الفعل عليها بين الطرفين، فى ظل اتفاق على معناها ومدلولها بشكل موحد.. يعنى اتفاقًا ما بين واحد يتحدث أو يكتب أو يغنى أو يرسم، وواحد يستمع أو يقرأ، أو يطرب، أو يتأمل.

. . . . . .

وأعتذر ـ هنا ـ مرتين مقدمًا..

الأولى.. بسبب هذه «الفذلكة» النظرية التى كادت تدفعك إلى إغلاق الملف، وقلب الصفحة!

والثانية.. لأننى على وشك إطالة الكلام فى موضوع مزمن، هرسه الجميع، وهشموا رأسك بالكلام عنه، آناء الليل وأطراف النهار..

أنا بصدد الحديث عن: (الوطنية)!!

وهو موضوع ـ كما لعلكم تدركون ـ أصبح الإيغال فى الثرثرة حوله (علمًا).. كما أصبحت دموع التظاهر بالإغراق فى الارتباط به: (صناعة)!

وما بين العلم والصناعة ضاعت (الدلالات) الحقيقية للكلمة، وتلاشت الحواجز الشفافة التى تمنع الموضوع من الاختلاط والتمازج مع عناوين أخرى، ربما تمثل عكسه ونقيضه!

وأوشك الجميع حول هذه الكلمة، أن يسقطوا أسرى لدخان حشيش الشعارات السياسية، أو يرون فى الأغانى، أو نبرات الصوت المتهدجة، أو الانسياق وراء العواطف الطفولية، تحصيلاً للثقافة والخبرات، يرون فى هذا كله بديلاً عما يمكن تسميته (الفعل الوطنى).

بعبارة أخرى، أصبحت (الوطنية) عندهم ظاهرة صوتية وليست فعلاً على الأرض، ومن حيث كونها ظاهرة صوتية، فقد تعمدوا انتهاك دلالاتها وتغييرها وفقًا لمصالحهم الآنية جدًا، أو رغبتهم المستعرة فى (الإعلان) عن الذات، و(تكفير) الآخرين فى وطنيتهم، أو دفعهم (للهجرة) من ساحات يستحقون فيها مكان الصدارة لا جدال.

نعم.. تعرضت هذه الكلمة، وأعنى (الوطنية) مازلت، لإغارات وحشية متوالية من الغلاظ، والجهلاء، والفاشلين، والميديوكراتية، سعيًا لتوظيفها فى خدمة إكمال ظهورهم الناقص والعاجز على مسرح الحياة اليومية فى مصر، وتدثرًا بغطائها الوثير.. وبحيث تصبح أية إشارة إلى تفاهة أدائهم العام أو تهافت مستواه ـ من وجهة نظرهم ـ هجومًا على الوطنية التى رأوا فى أنفسهم وكلاء تجاريين لها، ومسئوليين عن تغيير وتكييف معناها، بما يتواءم مع مصالحهم الصغيرة وعقدهم الكئيبة، وانخراطهم الحار فى تجويد الحقد، وتطلعهم لبلوغ مرحلة الغل، وسعيهم للتخلص من خصومهم، ونعنى بهم ـ فى هذا السياق ـ الموهوبين، والعباقرة، بل و(الوطنيين) أيضًا!!

.....

وقبل أسابيع كنت أتابع الاستعدادات، ثم الإطلاق والختام لبطولة الأهرام

الدولية للاسكواش للبنات فى الغردقة.

ونظرًا لطبيعة عملى فى العاصمة البريطانية، فقد كانت وسيلتى لمتابعة أخبار هذه البطولة هى القناة الفضائية، أو الصحافة والإعلام الأجنبى.

وقد رأيت فى هذه البطولة ـ من دون إسراف فى التعبير، أو بعثرة أوصاف ونعوت ـ أنها أكبر بكثير من كونها حدثًا رياضيًا، وأخطر بكثير من كونها: (كما درج هواة التسطيح على وصف أحداث مماثلة).. «لعب»!!

لقد رأيت فى هذه البطولة، وفى الجهد الخارق المنظم الذى أعد لها وصاحبها، عودة إلى (الدلالة) الأصلية لمعنى كلمة (الوطنية).

نعم.. أقول أننى كنت ـ ومعى ملايين المصريين والعرب خارج مصر ـ بصدد المشاهدة والتوحد مع عمل وطنى من طراز رفيع.

فى هذه البطولة، كنا بصدد ارتفاع مستويات الأداء المصرية إلى مستوى يفوق ما هو عالمى، وأكاد أقول أن هذه المستويات هى الطبيعية بالنسبة للمصرى، ما إذا استشعر الجدية، وامتلأ بالهدف، وما إذا تحرر من التأثير الكئيب الذى ضخته على رأسه ترسانات إعلام محلية مقرفة لسنوات عديدة، سعت فيها إلى سقوطه فى هوة الإحباط واليأس، وسممت المناخ العام حوله، وحطمت رموزه ومواهبه، واحتضنت وطبقت أسوأ وأحط طرق الصعود السريع، كما اعتنقت الجهل كعقيدة، ودافعت عنه بهمة، وحميمية!!

وفى هذه البطولة كنا بصدد حزمة من العناصر تتضافر معًا فى: (معركة الأسلحة المشتركة.. بلغة القوات المسلحة)، وكنا بصدد رصد قدرات على الابتكار والتركيب، تتفجر معلنة عن نفسها فى موقع الحدث، ومن الحركة، وفى اللحظة.. وكأن هذا الأداء المشترك ـ فى ذاته ـ تمثالاً لتخليد ذكرى هزيمة عناصر الصورة النمطية التى يتداولها البعض عن المصرى، ويصورونه متقاعسًا، وفرديًا، وغير قادر على صياغة أو صيانة التقاطعات بين الجمل الابتكارية متنوعة الدرجة والمستوى.. أو بعبارة أخرى لا يستطيع أداء عملين فى وقت واحد، أى لا يستطيع أن يتكلم ـ مثلاً ـ أثناء مضغه قطعة من اللبان.

وفى هذه البطولة كنا بصدد تحقيق قيمة (التفرد)، إذ لا يوجد شىء كهذا ـ

بيقين ـ (شكلاً وتنظيمًا ومضمونًا) فى أية بطولة عالمية نظيرة، أو حتى فى البطولات العالمية فى لعبات أخرى.. فأنت تشاهد المباراة فى ملعب شفاف يبدو ككرة من الكريستال تستقرئ فيها طوالع المستقبل، على أرض جزيرة فى وسط الماء، ومن فوق مدرجات جديدة، شيدت ـ فقط ـ من أجل هذه البطولة، ثم إنك تشاهد أعلى مستويات اللعبة على المستوى الكونى، وتقدم لأبنائنا وشبابنا مثلاً كلاسيكيًا أعلى، يتبعونه ويتمثلونه، بدلاً من أن يسقطوا أسرى فى أيدى أصحاب دكاكين السخط، أو يختطفوا إلى أوكار تدرسهم قواعد الجرائم المعنوية.

ثم إنك فى هذه البطولة، أمام منظومة وطنية تخدم (الرياضة)، كما تخدم (إحياء السياحة)، كما تخدم إنعاش الشعور العام، وإشعار الناس بالتفاؤل فى المستقبل، واستنقاذهم من تأثير خفافيش الكلمة الكئيب.

.....

والحقيقة أن إنعاش الناس وإشعارهم بالتفاؤل أصبح مهمة (وطنية) أولى فى العالم لأية حكومة (وطنية).

وسأضرب لك مثلاً بمشروع تقف بريطانيا ـ الآن ـ على قدم وساق لإنجازه، بل ويسعى رئيس وزرائها الظاهرة تونى بلير (٤٥ عامًا) لترويجه وشرحه للناس فى كل مكان من أرض الجزر البريطانية بنفسه، إذ أصبح يحفظ أرقامه وتفاصيله وإحصاءاته عن ظهر قلب.

هذا المشروع اسمه (ميلنيم دوم) أو قبة الألفية، وتشير إلى الألفية الثالثة التى يوشك الكون أن يستقبلها بعد أشهر قلائل.

سيتكلف المشروع ٧٥٠ مليون جنيه إسترلينى، ويبلغ ارتفاع هذه القبة فى أعلى نقطة لها ١٥٠ قدمًا.

وداخل القبة عالم المستقبل والعلم بكل تفاصيله (شكل مجسم عملاق للجسم البشرى، يعود الأولاد ويحفظهم كل المعلومات العلمية عن هذا الجسم.. وحواسب آلية تدار بها سباقات، ومراصد فلكية، ودراسة لأنواع

الطاقة الجديدة المبتكرة، وأشكال سيارات وطيارات المستقبل، ومتوالية لا نهائية من المزج بين الثقافة والعلم واللعب).

هذه ـ بالمناسبة ـ ليست أغنى حكومات العالم، ولا أغنى حكومات أوروبا، ولكنها رأت أن من واجبها (الوطنى) إنعاش ناسها، وإثارة التفاؤل والمرح والسعادة فى نفوسهم، كما نفت هذه الصلة الوهمية التى يحاول البعض الإيحاء بها بين الوطنية والكآبة، ويقدمون لنا، من خلال ذواتهم ـ بيانًا تطبيقيًا عمليًا على هذه الصلة الوهمية!

والذى دفعنى إلى استخدام مثال تونى بلير وقبة الألفية، ليست إقامتى فى العاصمة البريطانية فحسب، ولكن لأننى أرى تشابهًا فى «المزاج» بين أداء الدكتور كمال الجنزورى وأداء تونى بلير، فكلاهما يخاطب الناس مباشرة، ويعلمهم من خلال الأرقام والإحصاءات ومعاملات الارتباط بين الأرقام والمعلومات كل ما يرغب، باعتباره المسئول الأول على رأس الجهاز التنفيذى.

كما أن كلا الرجلين أشاع لدى توليه الوزارة فى بلده (والقياس مع الفارق) حالة تفاؤل شديدة، وفى لحظة واحدة.. وكذلك فإن كليهما يعرف هذه المعادلة الذهبية التى تجعل من سعادة وتفاؤل الناس مدخلا صحيحًا وبسيطًا إلى الوطنية.

بل إننا نرى فيه أكثر رؤساء الوزراء فى مصر تجاوبًا مع المفهوم الذى تعلمه القيادة السياسية ـ لمن شاء أن يتعلم ـ بكلمات بسيطة، تعودت أن تكررها علينا: (الحكم هو أن يعيش الناس).. (المهمة الأولى لأى نظام أن يلبى احتياج الشعب فى الحياة)!!

. . . . . .

ومن هناك لم تأت منظومة الأهرام الدولية للاسكواش فى الغردقة معلقة من جذورها أو شواشيها فى الهواء، وإنما جاءت استجابة مع فكرة معنوية اسمها الوطنية، والتى تعنى فى واحد من أبسط تعريفاتها وأدقها: إسعاد الناس.

إلى ذلك، فالإشارة إلى الدور «المؤسسى» الاجتماعى والثقافى الذى تلعبه الأهرام يظل مسألة جديرة بالإشارة، حقيقة بالاهتمام.

فالمشروع الصحفى ليس مجموعة من الأخبار أو الأسرار تنتظمها صفحات جريدة أو مجلة، ولكنه مشروع حضارى، وقد عرفنا مع الأستاذ إبراهيم نافع كيف نرعى ونحتضن مثل ذلك المشروع، برعايته الشاملة لحركة فن تشكيلى لا تقوم على الاقتناء فحسب، ولكنها تقوم على العرض العام للناس، وعلى إشراك جمهور الصحيفة والاعتراف به كمكون أصيل فى المشروع.

ثم برعايته الشاملة لبطولات رياضية عديدة، وصل بإحداها (وهى الاسكواش) لأن تكون أكبر بطولات العالم.

ثم برعايته الشاملة لحدائق الأطفال، والحفاظ على البيئة، وتجميل القاهرة، وغيرها من المحافظات.

كل هذا يدخل فى إطار الدور أو المشروع الحضارى «المؤسسى» للأهرام.. الذى يتوافق مع المراكمة التى يمثلها تاريخ المؤسسة، بالضبط كما يتوافق مع عبقرية البلد، وطاقات الستين مليون موهوب التى لا ينبغى إهدارها أبدًا تحت ضربات اليأس والإحباط.

وبالضبط ـ أخيرًا ـ كما يتوافق مع الدلالة الأصيلة لمعنى كلمة: (وطنية)!

.....

**١٥ أبريل ١٩٩٨**

# جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين

منذ سنوات قليلة أطلقت فى لندن جمعية تحمل اسم المفكر الكبير الراحل أحمد بهاء الدين.

والواقع أننى بحكم علاقة شرفت بأن تربطنى بالكاتب العظيم، ثم بحكم كونى عضواً مؤسسًا فى جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين فى مصر، تابعت باهتمام كل الخطوات التى سارت عليها هذه الجمعية من الناحية التنظيمية، من خلال أحاديث ومكالمات متفرقة مع الصديق الدكتور زياد بهاء الدين أمين صندوق الجمعية والدينامو المحرك لأعمالها، ووجدت أننا أمام نموذج مهم فى إطار هذا اللون من الأوعية الثقافية، وهو نموذج لديه خطة وهدف يسعى لتحقيقهما بروية واقتدار.

لقد أطلقت الدعوة عام ١٩٩٥ لتكوين جمعية ثقافية باسم الأستاذ أحمد بهاء الدين تبناها أصدقاؤه وزملاؤه بجانب أفراد أسرته، وفى نفس العام جرى البدء فى إنشاء الجمعية المصرية، وقد تحقق ذلك بالفعل بصدور قرار وزارة الشئون الاجتماعية المصرية رقم ١٦ لسنة ١٩٩٦ بإنشاء جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين الثقافية طبقًا لأحكام القانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤ وشهرها برقم ٤٢٨٥ لسنة ١٩٩٦.

وهذا الأسبوع تلقينا دعوة مفرحة من الدكتور زياد بهاء الدين تعلن بداية نشاط الجمعية المصرية بعد تأسيسها وافتتاح مقرها المستقل، ويشمل هذا النشاط اجتماع الجمعية العمومية، ويجرى خلاله مناقشة برنامج عمل الجمعية فى السنوات الثلاث القادمة، وفى اليوم التالى حفل استقبال فى قاعة طيبة فى فندق سميراميس، ثم فى يوم الاثنين ٢٠ أكتوبر أمسية شعرية وموسيقية فى الثامنة والنصف مساء بدار الأوبرا المصرية، نجمها الشاعر الفلسطينى الكبير محمود درويش.

والحقيقة أن نشأة وصمود وتطور مثل هذه الجمعيات الثقافية التى ترتبط

بإفشاء وإذاعة التنوير فى مجالات الثقافة بعامة، والتعليم بخاصة، هو أمر ينبغى الاحتفال به كثيرًا والاهتمام به كثيرًا، ليس فقط لتكريم الرموز الذين تركوا علامة لا تنسى فى تاريخنا الفكرى والمهنى (والأستاذ أحمد بهاء الدين واحد من أهمهم) ولكن لأن هذه الجمعيات والأوعية تستحيل منارات حقيقية تهدى الناس، وتعمق فى نفوسهم وعقولهم إيمانًا راسخًا بالإبداع الإنسانى، وبأن أهمية أية فترة فى حياة أية أمة إنما تتحدد بمقدرتها على أن تمتد إلى قدام مسلحة بمثل هذا الإيمان، وبمثل هؤلاء الرموز الذين يقف الأستاذ أحمد بهاء الدين فى المقدمة منهم.

. . . . . .

وهنا ـ فى الواقع ـ يبرز دور المال العربى والمصرى فى ضرورة تقديم المزيد من المساندة لمثل هذه الأوعية الثقافية، ليس بمنطق (الدعم) فحسب، ولكن بمنطق الوقوف المستمر والمنتظم وراء الأفكار التى تمثلها هذه الأوعية، بل وأن يتعدى ذلك إلى الدفع نحو إنشاء المزيد من الجمعيات التى تمثل نفس المعنى، وتضىء بأسماء الكبار من التنويريين.

بل وأحلم ـ إذا جاز لى أن أحلم فى هذا السياق ـ أن تكون مبادرة بعض رجال الأعمال العرب فى دعم ودفع جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين، مثالاً يتكرر، ليصبح جزءًا أساسيًا من حركة رجال الاقتصاد فى وطننا الكبير، وأظن أن تحالف الاقتصاد والثقافة هو الذى يخلق تقدم الأمم ويقيلنا من عثرات تاريخية عظمى مررنا بها بسبب تحالف الاقتصاد والجهل!!

**١٣ أكتوبر ١٩٩٧**

## حملة بريطانيا لتنظيم كأس العالم/ ٢٠٠٦

# تؤخذ الدنيا غلابا

فى كل مرة أخاطب فيها قارئ «الأهرام» حول موضوع عام كالبيئة، أو التعليم أو الوطنية.. أو غيرها، أجد القلم قد جرى بمقارنة بين قيم وأعمدة الحياة اليومية فى بريطانيا التى أعيش فيها بحكم الوظيفة، وبين قيم وأعمدة الحياة اليومية فى مصر التى تعيش فينا بحكم المولد والنشأة والرابطة العاطفية، والوشيجة النفسية.

وفى كل مرة أحاول ـ من خلال حوار ذاتى صاخب ومحتدم ـ أن أتلمس الذرائع والحجج، مؤكدًا أن المقارنة لا تكون إلا بين وحدات متكافئة، ولكننى أعود فأكتشف أننى ـ بالخضوع المطلق إلى هذه المقولة ـ يمكن أن أرتكب خطأ فادحًا فى حق النفس قبل حق الغير، فأنا لا أكتب عن معايير تفوق التقنية وترتبط بالثورة الصناعية الثالثة (ثورة الإليكترونات)، والتى لم نتحصل مفرداتها إلا بالاستعمال وليس بالتصنيع، ومن ثم فقد فاتنا الالتحاق بها، كما فاتنا الالتحاق بالثورة الصناعية الأولى ـ فى زمنها ووقتها ـ (ثورة البخار)، أو فاتنا الالتحاق بالثورة الصناعية الثانية ـ فى زمنها ووقتها ـ (ثورة انشطار النواة)..

أنا لا أكتب عن هذا حتى أقر وأعترف بفوارق الزمن التى يحددها ويبلورها موقع أى بلد أو أية جماعة من الصناعة، والتى ـ بالطبع ـ تمثل اختلافًا بين المعايير الريفية «المصطباوية» التى يقول فيها الفرد للآخر: «قابلنى آخر النهار» أو «سأمر عليك بعد المغربية!» وبين أقوال الناس فى المجتمع الصناعى، مجتمع الأوتوميشن، والميكروشيبس، الذى يحترم فيه الناس الثانية، بل وكسورها وأعشارها..

نعم.. أنا لا أكتب عن هذا حتى أخجل من المقارنة، أو أنسحب من ساحتها تحت وطأة الطرقات الثقيلة لمقولة أن المقارنة لا تكون إلا بين وحدات متكافئة.

أنا أقارن فى أمور أعلم أننا نستطيعها، لو أردنا، ولو تحررنا من عبادة (الهزيمة) والذوبان فى (اليأس)، والتمرغ فى ساحات (الإحباط)، وهى أمراض جماعية أصيب بها قطاع كبير من الناس فى بلدنا بتأثير التهميش طويل المدى فى بعض فترات تاريخنا الماضى، أو الحنين إلى الماضى بكل ما فيه، وبكل من فيه فى بعض فترات واقعنا الراهن!!!

. . . . . .

وسأحدثكم عن استعدادات الدول المختلفة لتنظيم دورات كأس العالم الكروية (ومعذرة فأنا لن أحدثكم عن كأس العالم الباريسية التى انتهت عام ١٩٩٨، أو كأس العالم ٢٠٠٢ التى ستصبح لب أحاديث النقاد، أو متابعة الصحفيين بعد انتهاء كأس العالم الفرنسية مباشرة.. ولكننى سأحدثكم عن كأس العالم ٢٠٠٦، التى لا يفصلنا عنها ـ اليوم ـ غير بضع سنوات فحسب، وقد اخترت هذا الموضوع حتى نرى كيف يتم التجهيز لمثل هذا التنظيم، أو للمنافسة عليه فى الدول المعنية من جهة، ولأننى وجدت اسم مصر المحروسة ضمن الدول التسع المتنافسة على تنظيم كأس العالم فى عام ٢٠٠٦.

وبمقدار الفرحة التى غمرتنى وأنا أرى اسم مصر ضمن أسماء الدول المطالبة بتنظيم كأس العالم ٢٠٠٦.. بمقدار التساؤل والحيرة اللذين عصفا بى وأنا أقارن استعدادات الدول الأخرى بما أعرفه عن استعداداتنا من خلال الوسائل العلنية.. إلا إذا كانت تحضيراتنا سرية.. وتتم تحت الأرض وفقًا لأساليب مخابراتية معقدة، حتى لا يعرف الأعداء بها وعلى رأسهم فيما يبدو ـ لدهشتى ـ.. المصريين!!!

وسأحكى لكم عن استعدادات بريطانيا التى أعيش فيها بحكم الوظيفة كمثال ويمكنكم معى بعد ذلك أن تقارنوا نوع استعداداتنا به.

والمعروف أن الدول المتنافسة على تنظيم كأس العالم ٢٠٠٦ هى: (الأرجنتين ـ البرازيل ـ مصر ـ أستراليا ـ المغرب ـ ألمانيا ـ جنوب أفريقيا ـ بيرو.. وبريطانيا).

والمعروف كذلك ـ إذا أذن لى القارئ العزيز وبعد الاعتذار الواجب على التجاوز ـ أن إرساء الاختيار على إحدى هذه الدول لتقوم بتنظيم كأس العالم لا يعترف كثيرًا بمقولات (سواء كانت غنائية أو خطابية) من طراز: «المصريين أهمه» أو «حضارة السبعة آلاف سنة»، أو البلد الذى «إذا مال ـ كده ـ الدنيا تميل»!!

وإنما الذى تعترف به الدنيا هو (المعايير)، والمعايير لها (طبقًا للغة الصناعية وليس اللغة الريفية المصطباوية) مستويات توحيد قياسية.. وبعد ذلك فلنغن كيفما نشاء، ولتتورم ذواتنا الحضارية كما نشاء، ولننظر لأنفسنا بألوهية، ولينظر لنا الآخرون ـ إن استطعنا ـ بتأليه كيفما نشاء.. فقط لابد أن يكون هناك شىء (على الأرض)، وهذا الشىء على الأرض مرتبط (بتصورات أو تهيؤات)!!

ومن أجل دراسة هذه المعايير، التى تتحرك بريطانيا لتؤكد للعالم أنها استوفتها، ومن ثم تحصل على حق تنظيم دورة جديدة لكأس العالم فى كرة القدم، كان لابد من معرفة نوع الاستعدادات التى تنخرط فيها ومن الآن!!

.....

فى شارع لانكستر جيت، بوسط مدينة لندن، رقم (١٦)، يقع مقر اتحاد الكرة الإنجليزى، وفيه تشكل منذ شهور عديدة فريق ما يسمى: (حملة إنجلترا لتنظيم كأس العالم ٢٠٠٦)، وهو مكون من دستة من الأولاد والبنات من خريجى الجامعات المتميزين، وذوى التخصصات المختلفة (سياسة ـ إدارة ـ رياضة).. ورئيس الفريق هو إليك مجنين، وتخصصه سياسة، ومتمرس فى الأعمال الخيرية.

والموازنة الخاصة بهذه الحملة تسعة ملايين جنيه إسترلينى (٣ ملايين من اتحاد الكرة + ٣ ملايين من رابطة منظمى الدورى + ٣ ملايين من مجلس الرياضة البريطانى).

وهناك توقعات بمساهمات أخرى من الشركات البريطانية الكبرى مثل الخطوط الجوية البريطانية، وليتيل وود، وجمعيات البناء.

وهذا الفريق اللذيذ يخاطب الشخصيات المهمة فى مجال السياسة والرياضة والاقتصاد، من أجل خلق «لوبى» محلى يدفع فى اتجاه ضرورة تنظيم كأس العالم، ويحاول جمع التبرعات من أجل جعل المنشآت الرياضية البريطانية على سنجة عشرة، بما يجعل البلد مستوفية المعايير.

وهو ـ فوق ذلك ـ يقدم أية معلومة إلى كل طالب، بل ويتطوع بتقديم مواد مطبوعة وشرائط فيديو حول استعدادات بريطانيا لهذا الحدث لكل وسائل الإعلام، وتجمعات البيزنيس والمؤسسات الوسيطة فى المجتمع كالاتحادات والجمعيات وغيرها.. فى محاولة جادة لخلق تيار وعى بهذه القضية المهمة.

وبالطبع فإن إسناد مهمة إقناع الناس بالهدف إلى هذا الفريق (فريق حملة إنجلترا لتنظيم كأس العالم ٢٠٠٦) يقتضى نوعًا من التجهيز السيكولوجى للفريق نفسه، عن طريق قيام أفراد الفريق بالإقناع والتلقين الذاتيين صبح مساء، بشعارات تؤكد أحقية بريطانيا بتنظيم الكأس، وهى عملية أشبه بما قمنا به فى «الأهرام» من عشرات السنين حين خلقنا الشعار الإعلانى فى البداية، وبناء عليه تحركنا كما لو كان يمثل فرضية واقعية وصحيحة، ومن ذلك مثلاً: «من مات ولم ينشر نعيه فى الأهرام فلم يمت»، إذ أن الفرضية ـ كما ترون ـ غير واقعية، ولكن من كثرة ترديدها ذاتيًا لدى فريق الإعلان فى الأهرام، ثم مع جماهير القراء، أصبحت أشبه بالقانون الواقعى، والصحيح ١٠٠٪!!!

ونفس الشىء يفعله فريق حملة ٢٠٠٦ البريطانية لتنظيم كأس العالم، فهم يرددون لأنفسهم فى كل وقت أن فوز بريطانيا فى المنافسة على تنظيم كأس العالم ٢٠٠٦ (والتى ستجىء بعد أربعين سنة من تنظيمها دورة ناجحة لكأس العالم ١٩٦٦) هو فوز مستحق.

وفى غرف هذا الفريق تجد قوائم قد علقت على الجدران مثل الخرائط العسكرية التى تحسب عليها إحداثيات الهجوم!

قوائم بمواعيد الأحداث المختلفة حتى يوم إصدار قرار الاتحاد الدولى بتحديد الدولة التى ستستضيف كأس العالم.

(يناير ١٩٩٩ موعد الحصول على قائمة متطلبات المنافسة المقررة بواسطة الفيفا ـ سبتمبر ١٩٩٩ آخر موعد لتسليم طلبات المنافسة من قبل الدول التى تريد تنظيم البطولة ـ نهاية مايو ٢٠٠٠ تقوم لجنة التفتيش التابعة للفيفا بزيارة البلاد المتنافسة للتفتيش على الملاعب فى كل دولة ومدى استيفائها للمعايير ـ ثم يونيو عام ٢٠٠٠ حيث يصدر قرار اللجنة التنفيذية للفيفا بتحديد الفائز فى تنظيم المناسبة).

وعلى حائط آخر فى إحدى غرف هذا الفريق المنظم لحملة بريطانيا لاستضافة كأس العالم، تجد سطورًا تقرر بعض حقائق هامة، مثل أن قرار استضافة بلد معين لكأس العالم عام ٢٠٠٦ سوف يصدر من ٢٤ عضواً، هم قوام اللجنة التنفيذية للفيفا.

وأن هذه اللجنة تتكون من ممثلين لاتحادات الفيفا القارية الستة:

(A.F.C ـ آسيا. . و C.A.F ـ أفريقيا. . وCONCACAF ـ شمال ووسط أمريكا. . وCONMEBOL ـ أمريكا الجنوبية. و UEFA ـ أوروبا. . و Oceania OFC - ـ أستراليا).

وتدعيمًا لهذه (العقيدة القتالية) إذا جاز التعبير، فإن جميع مطبوعات هذا الفريق الممتاز تتضمن نصًا لأغنية جميلة جدًا يؤديها فريق اسمه (Light house Family)، وهى نفس الأغنية التى تصاحب مشاهد شريط الفيديو الذى أرسله لى فريق (حملة بريطانيا لتنظيم كأس العالم ٢٠٠٦)، وتقول بعض كلماتها:

**«لأننا نستطيع أن نعلو.. ونسمو.. ونعلو.**

**نتحرر من الظلال التى ستنقشع**

**نتحرر اليوم وعلى طول الزمان**

**أنت، أنا إلى الأبد.. يا حبيبى سنعلو.. ونسمو.. ونعلو يااه.. يااه!**

**حين يكتمل حبنا مرة أخرى، فلن نعود مرة أخرى إلى الأرض الصلبة**

**أنا لن أقول: أنا مجنون، فوق المطر.. ولكننا سننجز مهمتنا على أية حال، وسوف تعودين إلى البداية مرة أخرى.**

**لأننا يمكن أن نسمو.. ونعلو.. ونسمو»**

الأغنية الجميلة ليس فيها ـ بالطبع ـ أى كلام عن «البريطانيين أهمه» ولا حضارة فرسان المائدة المستديرة ودستورهم غير المكتوب، الذى ألهم العالم كله معنى الديمقراطية الحديث، كما تخلو الأغنية من أية إشارة عن سماء بريطانيا، وشمسها، وقمرها، وطينها، وجواميسها!!

ومع ذلك فهى أغنية عشق لكرة القدم، وتصوير لحركتها بين الأرض التى ترتطم بها وبين السماء التى تعلو إليها، وهى أغنية حب للبلد، وأغنية غرام للحبيبة، بدون قرع لطبول الحرب، أو إطلاق لطنين المزايدة، أو تكفير للناس إذا لم يغنوا، وإذا لم يعبروا عن وطنيتهم بهذا الأسلوب المبتذل، الرذيل بالذات، ودون غيره من الأساليب!!

. . . . . .

نهايته، فضمن أساليب التلقين الذاتى، والحشد للناس خلف هذا الهدف الجميل، أعد فريق (حملة بريطانيا ٢٠٠٦ لتنظيم كأس العالم)، قائمة بخمسة أسباب من أجلها يرى أحقية بريطانيا بتنظيم كأس العالم وهى:

١ ـ أن إنجلترا هى محل ميلاد كرة القدم وموطنها الأصلى، وهى المكان الذى يحب الجمهور أن يشاهد لعبته الشعبية فيها، كما أنها المكان الذى يريد النجوم الدوليون أن يلعبوا على أرضه (لاحظ هذه القوانين التى تبدو وكأنها مسلمات يقينية وهى ـ فى حقيقتها ـ نوعًا من خلق المحفزات للحركة والدأب من أجل تحقيق الهدف.. بعبارة أخرى خلق وتعظيم إرادة النصر).

وبريطانيا طبقًا للمانيفيستو الذى طبعه أعضاء هذا الفريق، هى أقدم دول العالم فى ممارسة الفوتبول.. وإن كانت أثينا هى موطن الألعاب الأوليمبية، فإن إنجلترا هى موطن كرة القدم منذ أكثر من مائة عام.

فى عام ١٨٦٣ قام ١١ ناد إنجليزى بتأسيس اتحاد الكرة فى لندن، وبحلول عام ١٨٧٠ أصبح هناك ٣٩ عضوًا فى هذا الاتحاد.

وفى عام ١٨٧١ تم تأسيس كأس التحدى، الذى أصبح ـ اليوم ـ كأس اتحاد الكرة الإنجليزى، واستمر ليصبح أحد أكثر المسابقات قيمة فى العالم.

هناك ـ اليوم ـ ٤٢ ألف ناد للكرة فى بريطانيا.

حضور المباريات التى ينظمها اتحاد كرة القدم الإنجليزى يزيد كل سنة منذ موسم ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧.

فى موسم ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦ شاهد مباريات الدورى فى بريطانيا ٢١,٨ مليون شخص.

كما أصبح هناك عدد متزايد من دول القمة الكروية فى أوروبا، بل وصار نجوم أمريكا اللاتينية يتوقون للقدوم لإنجلترا للعب على ملاعبها.

.....

وبالطبع، فإن هذه الترسانة الرقمية والتاريخية، تخفى أمامها أيًا من المنافسين، ولكن المهم كيف يتم استخدامها بأسلوب فعال، وفى نفس الوقت بأسلوب حضارى ليس فيه انتقاص من الآخر.. أى آخر، وكل آخر.

٢ ـ كان تنظيم (أوروبا ـ ٩٦) كأس أوروبا، هو إنجاز بارز وناجح، وبمثابة «بروفة» بريطانية على تنظيم كأس العالم، ويقول أعضاء فريق حملة بريطانيا ٢٠٠٦: «لقد أثبتنا أننا نستطيع أن نقيم دورة دولية ضخمة خالية من المشاكل، ومنظمة جيدًا، وأشعنا من خلالها وحولها جوًا عظيما.. وتمتع بها كل الناس حول العالم، ونظروا إليها كأفضل نهائيات للبطولة الأوروبية إطلاقًا».

والمعروف أن البطولة الأوروبية هى الثانية بعد كأس العالم فيما يتعلق بعدد المشاهدين وبالتغطية التليفزيونية، ويلعب فيها ـ الآن ـ ١٦ فريقًا، وقبل ذلك كانوا ثمانية.

شاهد يورو ـ ٩٦ (مليون و٢٧٩,٣٧١ مشاهدًا) بينما فى النهائيات التى نظمتها السويد عام ١٩٩٢ كانوا ٤٢٩ ألف مشاهد، وكانوا فى النهائيات التى نظمتها ألمانيا عام ١٩٨٨، ٨١٠ ألف مشاهد.

وكان مشاهدو التليفزيون ليورو ـ ٩٦ البريطانية، بالحساب التراكمى (٦,٦٨ بليون فى ١٩٢ بلدًا.. أى بنسبة زيادة ٦٥٪ عن عام ١٩٩٢)!!

وكان الربح الكلى ليورو ـ ٩٦ حول ٦٩ مليون جنيه إسترلينى (ذهب منهم ٤٦ مليون للجوائز) و٢٣ مليونًا للاتحاد الأوروبى لكرة القدم لتطوير اللعبة فى أوروبا.

.....

ومرة أخرى كنت أمام هذه الترسانة الرقمية المخيفة، والأهم منها ـ مرة ثانية ـ هو توظيفها واستخدامها دعائيًا، وللإقناع بما يخدم الهدف النهائى المحدد مسبقًا.

٣ ـ يقول أفراد الفريق المنظم لحملة بريطانيا ٢٠٠٦ أن السبب الثالث المرجح لقيام بريطانيا بتنظيم هذا الحدث، هو أن ملاعب بريطانيا ـ الآن ـ هى الأفضل فى العالم كله، فقد صرف عليها فى السنوات الأخيرة حوالى ٦٠٠ مليون جنيه إسترلينى لإنشاء مجموعة من الملاعب المناسبة لكأس العالم!!

«نعم إن ملاعب أولد ترافورد وآنفيلد، وفيللا بارك أصبحت ـ اليوم ـ على أعلى مستوى، وذلك بعد البدء فى خطة تطوير كبرى عقب ما يسمى تقرير تايلور فى يناير ١٩٩٠ عن حالة الملاعب البريطانية» هكذا يقول أفراد فريق حملة ٢٠٠٦، وهم يضيفون: «إن بريطانيا تحتاج إلى عشرة ملاعب لتنظيم كأس العالم، سعة كل منها ٤٠ ألف مشاهد فما فوق، وكلها بمدرجات مزودة

بالمقاعد.. وهذا من السهل تنفيذه مع كمية الأموال التى يتم ضخها لهذا الغرض.. وبخاصة أن رقم ٦٠٠ مليون هو رقم تقريبى، دفع منه وقف الفوتبول ٢٥٦ مليونًا، والباقى من مصادر أخرى قد تعلو حصيلة إسهامها عن رقم ٦٠٠ مليون».

أما «ويمبلى» ساحة الأساطير، فهو على على وشك أن يعاد بناؤه بتكلفة ٢٠٠ مليون من الجنيهات.

وطبعًا.. استاد ويمبلى هو أكثر الملاعب شهرة فى العالم، ولكن ما يجرى فيه الآن (والذى عرضت ماكيتاته فى شريط الفيديو الذى أرسله فريق الحملة لى) سيجعله أعظم الاستادات وأكثرها تطورًا وأناقة فى العالم كله، أو بمعنى آخر سيصبح مناسبًا للقرن ٢١ وللألفية الثالثة التى لا يمل رئيس وزراء بريطانيا الظاهرة تونى بلير، التبشير بها آناء الليل وأطراف النهار!

والمعروف أن استاد ويمبلى أو ساحة الأساطير، استضاف نهائى الكأس عام ١٩٢٣، كما استضاف الألعاب الأوليمبية عام ١٩٤٨، واستضاف عام ١٩٥٣ نهائى ستانلى ماثيوز، واستضاف ـ أخيرًا ـ عام ١٩٦٦ نهائى كأس العالم.

وقد شهد استاد ويمبلى خمسة نهائيات لكأس أوروبا، وبالطبع يورو ـ ٩٦.

والآن يتم تحديث هذا الاستاد الأشهر، البالغ من العمر ٧٥ عامًا، مع الإبقاء على برجيه الشهيرين التاريخيين (يشبهان مدخل استاد الإسكندرية) باعتبارهما علامة لا تنسى، لابد أن تبقى للأجيال، والباقى كله سيزال وينشأ محله استاد جديد سعته ٨٠ ألف مقعد، وبسقف متحرك، ويستغرق العمل فيه ما بين سنتين وثلاث سنوات.

.....

ومرة ثالثة هذه الترسانة الرقمية مؤثرة جدًا، والأكثر تأثيرًا منها هى الطريقة التى تستخدم بها فى سبيل تحقيق الهدف البريطانى.

٤ ـ أن كأس العالم فى بريطانيا ـ من وجهة نظر فريق الحملة ـ سيأخذ مكانه

على ملاعب ذات مناخ فريد، إذ لا توجد أسوار، والجمهور فيه سيكون قريبًا للملعب، وهذا بطريقته يشيع مناخًا خاصًا، إذ أنه يخلق جوًا من «الحميمية» و«التكثيف» للجو النفسى الذى تجرى فيه المباراة.

والمعروف أن الأسوار أزيلت من كل الملاعب الكروية الإنجليزية منذ عام ١٩٨٩، وصار الحوار بين اللاعبين والكرة والجمهور منذ ذلك التاريخ (حوار بلا أسوار)!!

على حين معظم الاستادات الألمانية محاطة بالأسوار، وكذلك فى فرنسا، وأسبانيا، وإيطاليا، وهولندا.

كما أن الملاعب الأوروبية تميل فى معظمها إلى خلق عامل تحكم، غالبًا ما يكون فى شكل مضمار جرى بين الملعب والجمهور، ولكن ذلك لا وجود له فى الملاعب البريطانية ذات الحميمية الخاصة، وقد بدا ذلك واضحًا فى يورو ـ ٩٦.

٥ ـ ويضيف فريق الحملة ـ أخيرًا ـ أن: «بريطانيا مصنفة ضمن دول القمة ذات النصيب العالى من السياحة الدولية، ولندن ـ بالذات ـ لها قابلية شديدة كمقصد سياحى، والناس ينجذبون إلى تاريخها وتقاليدها، كما ينجذبون لأماكن الشراء مثل هارودز، وأماكن المهرجانات والاحتفالات الفنية والثقافية فى الوست إند، وهناك إمكانيات غير محدودة للمزج بين الجولات السياحية وحضور مباريات كأس العالم».

يعنى الناس يفهمون أن الحدث لن يكون لعبًا فحسب، ولكنه سيصبح مكونًا رئيسيًا فيما كنا ندرسه لطلبة الإعلام تحت عنوان: «المزيج التسويقى» والذى سيتم فيه بيع عدد من القيم أو الأحداث فى وقت واحد لارتباط أحدها بالآخر!!.

. . . . . .

والآن بعد كل هذه المعلومات التى سكبتها أمامكم، والتى توضح كيف يستعد

الجادون للمناسبات الجادة.. فأنا واثق أن أيًا منكم يستطيع إكمال السطور الباقية فى مقالى هذا.

كما أننى واثق من أن لدى كل منكم تعليقات تشرخ صدره مفعمة بالتأنيب الذاتى، أو السخرية، أو المرارة.

أرجوكم ألا تفعلوا

أنتم أعطيتم لجميع مؤسسات الدولة ـ كدافعى ضرائب ـ كل ما يمكن هذه المؤسسات، بما فيها اتحاد الكرة، أو المؤسسات الرياضية من أن تقيم أودها وتمارس دورها بفاعلية.

كما أن هذا الموضوع ـ بالذات ـ ليس مسئولية الأجهزة الرياضية فحسب، بل هو مسئولية حزمة متكاملة من الأجهزة، والمسئولين، والسياسات.

وبالطريقة التى نرى الأمور تسير بها سأدلكم على أمل ربما يتحقق، إذ أن هناك طريقة عادة ما ينجح بها المحدودون، وهى أن نتباكى على أن أفريقيا لم تنظم كأس العالم من قبل قط، وأننا دولة صاعدة ويجب أن يمنحنا الفيفا فرصة، وأننا بلد النيل والهرم، والطقس المعتدل، وأن هناك مؤامرة دولية للنيل منا، فى عصر الجات والعولمة والشفافية، وثورة الاتصال وانفجار المعلومات (لعنهم الله جميعًا)، ولا بأس أن نصحب هذا كله، أو نتبعه بالنهنهة على أكتاف مسئولى الفيفا، وبالذات مستر هافيلانج أو خليفته طبقًا لشعار الأستاذ نزار قبانى الغنائى رحمه الله: «وبكيت ساعات على كتفيه»، ولا بأس أن نغالى فى استدرار العطف، فنتحدث عن أننا فقراء، ولدينا فى ملابسنا خروق، وأننا جوعى وأصبحنا جلدًا على عظم.. وأننا.. وأننا.. و.. و..!!

هذه أساليب الريفيين المصطباويين الذين لا يعرفون قيمة الوقت، ولا فوارق الزمن التى أقرتها الصناعة، ولهذا فهم لا يعرفون التخطيط لأى شىء فى الوقت المناسب وبالخطة المناسبة.

هم لا يعرفون إلا التنادى بالنجدة إذا ما قتل نفر، أو تعرض آخر لسم بهائمه، أو تقليع قطنه، أو سحبه الغفراء إلى غرفة السلاحليك أو غرفة التليفون لأمر يعرفه الجميع.

ساعتها يجرى الناس - وغالبًا - فى اللحظة الأخيرة لكى يلحقوا تلبية الصرخات المتنادية للنجدة.. وهى النجدة التى إذا تحققت مرة بمثل هذه الأساليب، فإنها لا تتحقق مرات..

ودمتم!!!

**١٧ يونيو ١٩٩٨**

obeikandl.com

# بصمات

هل لاحظت يومًا وأنت تخطو على أرض ميدان ليستر الشهير فى لندن تلك المربعات الداكنة من حديد الزهر التى تحمل أسماء أشهر شركات الإنتاج السينمائى، أو تحمل بصمات لأيدى نجوم الشاشات الفضية المعروفين عبر تاريخ هذه الصناعة؟!

إذا كنت لم تلحظ هذا فإننى أدعوك للملاحظة، وإذا كنت لاحظت فدعنى أدعوك للتأمل والمناقشة.

إن التخليد صناعة وعلم اجتماعيين الغرض منهما ليس إضفاء صفات قداسة على شخص، ولا إسباغ التكريم على الإنجاز الإنسانى فحسب، ولكن التخليد يحمل فى طياته معنى أهم وأكبر، ألا وهو إلهام الناس، وبالذات صغارهم الذين يستقبلون الزمن الجديد، ليكونوا (مثل)، أو ليكونوا (أفضل) من هؤلاء الذين طبعوا بصمات أيديهم على الزمن القديم فى كل مجال من مجالات الإبداع.

لقد منعتنا ثقافة (العزل) فى بعض مراحل حياتنا من تكريم من ينبغى أن نكرمهم، ثم منعتنا مشاعر (الإحساس بالإحن) من أن نعطى لكل ذى حق حقه فى مراحل أخرى.

ثم ستمنعنا ـ إن لم ننتبه لسلوكنا كمجتمع وكأفراد ـ الرغبة فى المصادرة على الزمن الآتى، وتشكيله وفقًا للأفكار المعلبة والنظريات سابقة التجهيز، من أن نعيش عصرًا جميلاً يحفل بتغريد المواهب وشقشقات العباقرة!

هذا مهم جدًا قبل أن نبدأ فى الحديث عن أن المبدعين شحوا، أو أن المواهب نضبت.

فكيف سيظهر المبدعون وسط مجتمع لن يخلدهم، ولا يعرف قيمتهم؟ ثم كيف نلهم الأجيال الجديدة بأهمية الإنجاز أو الإضافة التى حققها البارزون الموهوبون فى تاريخ بلدهم إن لم يرونا نخلدهم ونحتفل بهم؟ ثم كيف نعلم

أبناءنا أن هناك (معايير) حقيقية يصعد الناس على أساسها، ويستحقون بسببها إكبار الشعب فى بلدهم. وأن هذه المعايير بعيدة ـ بالضرورة ـ عن الدروب «السالكة» وطرق النجاح السريع التى لا تعترف بالكفاءة أو الجهد أو ـ مرة أخرى ـ المعايير.

هذه بعض خواطرى عن بصمات العباقرة على أرض ميدان ليستر، أدعوك لأن تشاركنى فيها.

**١٩ أغسطس ١٩٩٧**

obeikandl.com

## متحف

ليس اكتشافًا بالطبع!

كما أنه واحد من مئات المتاحف التى يمكن أن تصادفها فى هذا البلد.. (بريطانيا)..

ولكنه ـ على الرغم من ذلك ـ متحف يستحق التوقف أمامه كثيرًا وطويلاً.

متحف المسرح فى «كوفنت جاردن».

وفيه أنت أمام حفاظ منظم على تراث بلد، تأريخ مستمر لعاداته وأعرافه وفنونه وإبداعه، بشكل يشير إلى أهمية كل جزء صغير من لوحة الحضارة فى بلد ما، أو لوحة الحياة لشعب ما.

ملصق المسرح، ملابس الممثلين، تطور المكياج، النصوص الأصلية للأعمال المسرحية، الصور الفوتوغرافية لمشاهد من العمل المسرحى، بناء الماكيتات الصغيرة لشكل الخشبة والميزانسين فى الأعمال المسرحية الكبرى، ثم تسجيلات صوتية، وتسجيلات تليفزيونية للمسرحيات الهامة، تختارها من الأرشيف فتعرض عليك فى التو.

ليس هذا تأريخًا لفن المسرح فقط، ولكنه حفظ وصون لجزء من تاريخ الناس، وهو مساحة مهمة من عملية تعليم الناس، وتحريضهم على الإبداع، أو دفعهم إلى تقصى تطور هذا الإبداع.

وبهذا الشكل ـ فقط ـ تنشأ أجيال جديدة عارفة ومتعلمة، وبهذا الشكل ـ فقط ـ يصبح المسرح جزءًا من حياة الناس، وجدولهم.

التأريخ للفنون العظيمة لا ينفصل ـ بحال من الأحوال ـ عن عملية خلق هذه الفنون العظيمة وإنتاجها، كما لا يعنى ـ بحال من الأحوال ـ التغنى بعظمة الماضى، وإنجاز الأجيال القديمة، لأن ما تستشعره فى متحف المسرح «بكوفنت

جاردن» هو أن الرصد التاريخى لهذا اللون من الإبداع الإنسانى هو مؤمم بالكامل لصالح المستقبل، من دون انحيازات اصطناعية لصالح زمن على حساب آخر، وإن ساد فى كل ركن من أركان هذا المتحف انحياز واضح وجلى لإبداعات الإنسان وصياغاته الحضارية، التى ـ بطبيعتها ـ تمتد إلى قدام.

**٤ أغسطس ١٩٩٧**

obeikandl.com

## أحوال

«هى عبور من حالة الهاجس الانطباعى، إلى مربع الطموح الإصلاحى»..

هكذا قدم لها مهندس الفكرة، وصاحب الرؤية الدكتور محمد السيد سعيد.

أما هى.. (أحوال مصرية).. فواحدة من أكمل المطبوعات المصرية فى العقد الأخير، وقد صدر عددها الأول فى صيف هذا العام.

وحينما يتجاسر المرء ليصدر حكمًا بهذه الإطلاقية، فإنه ـ لابد ـ يستند إلى حزمة معتبرة من الحيثيات!

وقبل أن ندلف إلى ساحة الترافع عن حكمنا المهنى إزاء هذا المطبوع ثقيل العيار، أو إلى مساحة الاحتفال به وبصائغى شخصيته، وصانعى فكرته، أظن أن من واجبى أن أحدد موقع هذا المطبوع ضمن باقة مطبوعات مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، فمنذ أن تولى الدكتور عبد المنعم سعيد إدارة هذا المركز، أصبح يموج بالحركة، ويطلق إبداعات خبرائه وباحثيه التى تستحيل منارات حقيقية للثقافة والفكر، وخطوط دفاع أولى فى مواجهة كتائب الجهالة التى تتربص بمصر الدوائر.

وصرنا ننظر باعتزاز أثير إلى «تقرير الحالة الدينية»، «والملف الاستراتيجى» و«كراسات استراتيجية» و«قضايا برلمانية» و«مختارات إسرائيلية» ثم أخيرًا جاءت هذه الإضافة اللامعة، المتكاملة، القشيبة: (أحوال مصرية)، ليرأس تحريرها واحد من ألمع مفكرى جيله، وأكثرهم قدرة على توليد الرؤى والحلم باليوطوبيات، وتصدير طاقته الداخلية المتدفقة إلى كل من حوله، ليصبحوا ـ جميعًا ـ الرقم العكسى ضد التخلف، ونجوم ورموز الالتصاق بالماضى، والتسول السياسى والفكرى على بوابات هذا الماضى وأضرحته.. وأعنى به الدكتور محمد السيد سعيد!

.....

وأعود إلى (أحوال مصرية)، وإلى الأسباب التى دفعتنى إلى الاعتقاد بأنها واحدة من أكمل المطبوعات فى العقد الأخير.

هى - أولاً - عمل له الصفة الأكاديمية لا مراء، ولكن أكاديميته ليست من ذلك النوع الذى يطلق تنظيراته وفروضه التى لا تصد أو ترد من خلف المكاتب، ولكنها أكاديمية ميدانية، تعيش وسط الناس وتعكس أحوالهم.. تلك الأحوال المصرية!!

وهى - ثانيًا - رؤية أكاديمية ذات توجه إيجابى وتغييرى، يستهدف - كما قال رئيس التحرير فى افتتاحية العدد - الإصلاح بطموح! ويبين ذلك بجلاء فى (التحقيق البحثى) إذا جاز التعبير، عن الطبقة الوسطى، والتساؤل عما إذا كانت قد انهارت.. أو فى تلك المناقشة البديعة التى قادها المخرج السينمائى سيد سعيد عن قيام مجموعة من الفنانين التشكيليين بتلوين وتشكيل بيوت البسطاء الفقراء فى كوم غراب (منطقة نصف عشوائية فى مصر القديمة، يعيش فيها عشرة آلاف بنى آدم وتسودها مظاهر فقر اجتماعى اقتصادى واضحة).

إذًا كانت (أحوال مصرية) فى الحالة الأولى.. (حالة التحقيق البحثى عن انهيار الطبقة الوسطى) تحاول الإجابة على سؤال يخص - بمعنى من المعانى - هذه الكوكبة المتميزة من كتابها وخبرائها أبناء الطبقة الوسطى، والشريحة النشيطة الخلاقة فى المجتمع، والذين دفعهم هاجس الانقراض أو تلاشى وذوبان الجزء المبدع المبتكر فى مجتمعهم، إلى التساؤل ثم التحقيق حول انهيار الطبقة الوسطى!!

وكانت «أحوال مصرية» فى الحالة الثانية تطرح سؤالاً آخر موحيًا، وغاية فى التركيب والتشابك لوحده، وهو سؤال يتعلق بمدى احتفالية المصريين البسطاء بالحياة، أو - بعبارة أخرى - هل يعيش هؤلاء الحياة، أم يتعايشون معها؟!

إن شلال التفاؤل الذى تثيره المحاولة الجسورة لمسح أحزان الفقر عن واجهات بيوت كوم غراب، وإضاءة قلوب ونفوس الناس، ودفعهم إلى الحلم طريقًا إلى التغيير، إنما قد اكتسب بعدًا إضافيًا بتلك المناقشة التى تمتزج فيها عناصر وقيم

جمالية تنتمى إلى الفن التشكيلى، مع عناصر وقيم اجتماعية تنتمى إلى التحليل السياسى، وذلك كله فى إطار من الإيمان العميق (أكاد أقول الصوفى) بالبلد العبقرى، والشعب العبقرى!!

ثم إن (أحوال مصرية) ـ ثالثًا ـ تعد وعاء بالغ الأهمية لطرح والتحريض على مناقشة الآليات التى تعمل السياسات المحلية وفقًا لها، فى أمور أصبح النظر إليها يختزل نفسه فى كلمة واحدة هى: (حقوق الإنسان)..

هكذا بشكل مجرد.. إذ لم يعد الموضوع مطروحًا فى علاقة الفرد بالدولة، لأن هذا الإطار تتنوع فيه درجات الأداء بتنوع درجات ألوان الطيف، ولأنه يسمح للطرفين باختراع صيغ حول الحقوق والواجبات، لا يوجد ـ فيما يخصها ـ نموذج تتراضى عليه الأطراف وتضع توقيعها، عن: (حدود الإلزام والالتزام)!!

أما حقوق الإنسان، فالالتزام بها يجب أن يكون مطلقًا، والإلزام إزاءها ينبغى أن يكون كاملاً.. وإلا كانت الأطراف المعنية تتجاهل قوانين العصر وقيمه، ومفاهيمه العمد. ومن ثم فإن طرح قضية (فقر البحوث الطبية والصحية فى مصر) يأتى فى سياق التعامل مع نموذج حق المواطن وواجب الدولة، ويرتكز فى (أحوال مصرية) على قاعدة بيانات ثرية وحديثة، تتيح لأى متعامل مع الموضوع ألا يسقط فى براثن الأهواء والتهيؤات، والانطباعات (تلك التى وصفها رئيس التحرير فى افتتاحيته.. حين تكلم عن «الهاجس الانطباعى»).

وكذلك فإن موضوع (الآليات التى تعمل السياسات المحلية وفقًا لها) يتأكد فى هذا العدد من المطبوع المتميز بالدراسة المعنونة: (ماذا نعرف عن السياسة فى مصر؟) وهى التى ترصد اتجاهات الدراسات المقارنة فى السياسة وموضوعاتها، وأطرها النظرية، ومناهجها.. الأمر الذى يلقى بإضاءات كاشفة على العوامل التى تدخل فى حسابات أى صانع قرار مصرى، ومن ثم على الآليات التى تعمل السياسات المحلية وفقا لها.

وأخيرًا فإن (أحوال مصرية) ليست فقط مطبوعًا، مجرد ظهوره على سطح الحياة العامة فى مصر يعد علامة دالة وفارقة، ولكنها ـ بمعنى من المعانى ـ

أصبحت وثيقة مهمة من الوثائق التى تصف وتسجل التغيرات التى تطرأ على الأنساق المشكلة للشخصية الوطنية، وعلى مظاهر الحياة اليومية فى الوطن.. وفى هذا الإطار لا أظن أنها صدفة، كون إدارة تحرير هذه المجلة قد لجأت فى باب عرض الكتب إلى استعراض كل الدراسات التى عنيت بالتحقيق فى (شخصية مصر)، إذ تبدو هذه الفصيلة معنية ومهمومة بالبحث فيما يخص الشخصية الوطنية، وهو الأمر الذى وردت أكثر من إشارة بشأنه فى (مانيفيستو الصدور) أو افتتاحية رئيس التحرير.

.....

وربما لا تتسع المساحة ـ هنا ـ لكى يلم حديثنا بكافة الجوانب التى أفشتها وأشاعتها هذه المطبوعة الجادة الجميلة.. إلا أنها كانت ـ من دون شك ـ كافية لأن نرفع يدنا بتحية تقدير مهنية ووطنية لها، ولكل العاملين فيها، ولروح (الاكتمال) التى لفت صدورها، والتى ـ ربما ـ تكون إشارة بسيطة عليها هى وضع اسم مسئول عن مراجعة اللغة العربية فى ترويستها، إعلانًا عن أن أصحابها من نوع الناس الذى يتحرك إيجابيًا لحل أزمة بأكثر مما يسهم فى صناعتها، أو البكاء إلى جوارها.. إذ أن (أحوال مصرية) قدمت ـ أيضًا ـ من خلال صيغة صدورها، حلاً فعالاً لأزمة اللغة والتصحيح، والتدقيق فى المطبوعات المصرية!!!

**٣١ أغسطس ١٩٩٨**

# تهليلات

وسط المفردات المقرفة لخطابى التطرف الأسود، والاستقطاب الطائفى المزعوم.. ووسط أطنان الكتابة غير الحقيقية (شبه الكتابة)، الحاملة معان ومضامين غير حقيقية بدورها، والتى تتحدث عن التمييز بين أبناء الوطن الواحد بأكثر مما تعكس شخصية بلد يضم بين جنباته كل هؤلاء الأبناء، أو تعكس أشواق هذا الوطن إلى المستقبل، التى يجب ألا تتعثر أو تعاق بمثل هذه المقولات المتخلفة، المعبرة عن فكر متخلف.

وسط كل هذه المفردات التى أصبحت سمة أساسية لقصفات غير بريئة، سددة إلى سويداء قلب الوطن من بعض من يسمون أنفسهم أقباط المهجر، أو بعض أعضاء الكونجرس.. أصخت السمع إلى صوت جميل جدًا، فى كتاب صاحبته رسالة إلى كاتب هذه السطور.

صوت فرانسوا باسيلى فى ديوانه (تهليلات إيزيس.. أشعار من المهجر الأمريكى)..

هذا الديوان أنشودة عشق لمصر البلد، ومصر الشعب، محملة بشحنة ثقيلة جدًا من المشاعر.. والشاعر ـ على مقدرته المعجزة فى تبسيط الصعب ـ نجح بشكل ربما لم يسبق غيره من مبدعى المهجر (إذا جاز التعبير) فى أن يستحيل تجسيدًا فنيًا رائعًا لملامح شخصية مصر فى سياق اجتماعى، سياسى، وثقافى ـ جد ـ لافت ومثير وجديد!!

(اطلع من صحرائك المهجورة يا وطنى.. اطلع كالنافورة.. وها أنا.. على ذراعك المكسورة.. أسند جبهتى.. وإخوتى.. وأسند الأسطورة)!

هنا تشعر أن فرانسوا هو صوت يعبر عن البلد كلها (الإطار).. ثم تسمع ذلك الهمس والترديد الناعم المفعم بمؤثرات قبطية وكنسية داخل هذا الإطار: (بكى إخوتى بالدموع الحبيسة.. وتهاوى العريس على عتبات الكنيسة)!

أى أن الجديلة القبطية فى ضفيرته الوطنية واضحة المعالم لا تذوب أو تتلاشى، ولكنه يرتد ـ فى اللحظة والتو ـ وعبر ارتباط فنى رفيع المستوى، إلى الإطار الوطنى العام، فتكتمل جملته الإبداعية على النحو التالى:

(بكى إخوتى بالدموع الحبيسة.. وتهاوى العريس على عتبات الكنيسة.. فمالت عليه من الهلع المئذنة.. ودعته بقبله!!)

والمدهش أن فرانسوا باسيلى (الذى إلى جوار كونه مبدعًا ومترجمًا وناقدًا ثقيل العيار أفصح عن وجوده فى مصر الستينيات) كان مهندسًا استطاع أن «يهندس» صيغة فنية شديدة الصعوبة، تعكس لديه تيارًا شعوريًا داخليًا شديد التعقيد أيضًا.

هو ينطق بصوت الوطن من دون أن يسقط فى فخ التقريرية، والخطابية، والمباشرة.

هو يحافظ على توازن إبداعى عبقرى بين (الطقس، والأسطورة)، وبين (الوعى والوعى المضاد) وبين تسلط المفاهيم السائدة فى الأنظمة القيمية والثقافية فى الوطن الأم، حتى لو كان ذلك عبر استدعاءات متكررة من الماضى وإسقاطها على الحاضر، أو المنطوقات العقيدية، أو شبه العقيدية، التى تحكم عقل وطن المهجر، وتنتمى ـ بالطبيعة ـ إلى نظام صناعى وتقنى ومعرفى مغاير.. بحيث لا تشعر، ولو للحظة واحدة، بهذا التناقض الكلاسيكى فى شعور المبدع بين ثقافتين تمزقان نسيجه الداخلى.. وإنما هو ينتقل بك بسلاسة وعذوبة بالغتين بين أفكار وأنساق وتراكيب عقلية ووجدانية تنتمى إلى كل من العالمين، من دون أن تشعر باهتزاز أو فزع ثقافى.. إذا جاز التعبير.

لقد هز فرانسوا باسيلى فى قصائده ما يعرف بنزعة ما بعد الكولونيالية، التى تشير إلى مبدعى العالم الثالث الذين هاجروا إلى الغرب وأصبحوا جزءًا من بنائه المعرفى، وذابو ـ تمامًا ـ فى ثقافته.

وجاء إبداعه بعيدًا عن هذا، محافظًا على قوامه، بحيث تبدو الهجرة بأفكارها

ومشاعرها وكأنها نتائج لمقدمات، أو استلهامات لمصادر أو أصول كلها تتشعب متجذرة فى أرض الوطن الأم!!

ولعل حضور الأسطورة ـ على هذا النحو ـ فى شعر فرانسوا، من تهليلات وابتهالات إيزيس، إلى شكاوى الفلاح الفصيح، إلى «المواويل، التى لن تتذكرك يا سندباد» هو أكبر دليل مادى على هذه المرجعية الوطنية الأصيلة، و التى يستند إليها بوضوح كل بنائه الإبداعى.

هذا البناء ـ الذى صاغ بحرية، وبإرادة ذاتية وجدانية، ومن دون أن تدعى سلطة ما سوى سلطة الحب الوطنى الخالص أنها شكلته، أو بنته، أو صنعته ـ هو بالضبط الذى طرح نفسه فى شعر فرانسوا وصوته الإبداعى الجميل جدًا، الذى يعشق الشعب والبلد، ويعكس الشخصية الوطنية الجديدة، ثم يبلور ذلك الشعور القبطى ذى الملامح الواضحة، ولكن داخل هذا الإطار الوطنى.

مرة أخرى.. استمع معى إلى صوت فرانسوا باسيلى الجميل بقصيدة ذات عنوان دال هو: «أدين بالوطن.. والله للجميع» وفيها يقول:

«قد دق اسمك لى من الجرس المعلق بالكنيسة: مصر.. مصر.. مصر.. مصر.. دق اسمك لى، تداخل فى صلاتى.. فى الشموع رأيت وجهك فى شكاتى.. فى بخور الهيكل القداس.. والغصص الحبيسة.. رحت أهمس أحرف الاسم الذى.. ذكرته فى الدير القسوس.. وتمتمت قديسة.. ومن المآذن جاء اسمك؛ اسم مصر.. وعلى شفاه الشيخ فى الكتاب.. فى الكتب النفيسة.. وقرأت فى التوراة مصر.. وقرأت فى الإنجيل مصر.. وقرأت فى القرآن مصر.. وأقمت فى وديان مصر شعائر الأديان.. من بدء الزمان.. فصارت الأديان مصر.. ومصر صارت مجمع الأديان.. وأنا الإنسان فى الأديان، إنسان هذا العصر.. الله لى.. أنا له.. وأدين يا مصر بمصر».

.....

لم تكن كلمات فرانسوا باسيلى بعيدة إذن عن الدلالة التى يوحى بها عنوان الديوان (تهليلات إيزيس) ولا عن الحضور الطاغى لمفردات هذه الأسطورة

(إيزيس - أوزوريس - حورس - ست) فى أكثر من قصيدة فى الديوان. .

هى قطع من جسد مصر تناثرت وسط ضغوط الغربة، والتى أنشبت أظافرها وأنيابها فى قلب مبدع مصرى لملم هذه الأشلاء مثلما فعلت إيزيس، وخاض معركته ضد الشر والتخلف، والانفصال، والانعزال، والاستغراب (الانتماء للغرب) مثلما فعلت إيزيس ضد ست، وهو - أخيرًا - بكل كلماته وأخيلته واستلهاماته، تطلع بصوته الشعرى الجميل إلى مستقبل الوطن، وبكتابة حقيقية، وليست كتابة شبه الكتابة، مثلما فعلت إيزيس تجاه حورس.

(أدخل محتفلاً بطقوس محبتنا الأولى. . كى نخلق كونًا نملؤه).

نعم يدخل محتفلاً. . عاكسًا أشواق وطننا إلى المستقبل، التى يجب ألا تتعثر، أو تعاق بمثل هذا المقولات المتخلفة المعبرة عن فكر متخلف.

**٧ سبتمبر ١٩٩٨**

## مراكب

فى أسبوع واحد وجدتنى مشدودًا إلى التاريخ البحرى لكل من مصر وبريطانيا، عبر خاطرين ذهنيين وشعوريين!!

الأول كان حين مر اليخت الحربة (المحروسة سابقًا) فى طابور عرض بحرى أمام القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية، فى أعقاب البيان العملى (انتصار ـ ٣) الذى أجرى فى يوم البحرية المصرية (يوم إغراق المدمرة إيلات بأول صاروخ سطح/ سطح فى تاريخ الحروب).

والثانى كان حين زرت متحف السفن البحرية التاريخية للبحرية الملكية فى بورتسموث على الساحل الجنوبى للجزر البريطانية.

والواقع أنه ـ بمعنى أو بآخر ـ فإن الأحداث الكبرى فى تاريخ البلدين ظلت مرتبطة بطرق التجارة (برًا وبحرًا) كما ظلت مرتبطة بمنعة أو قوة أسطول أى منهما.. بل إن تقاطعات لافتة حدثت بين الأسطولين فى نهاية عهد محمد على، أو بين الأسطولين البريطانى والفرنسى على ساحل أبى قير، أو بين الأسطول البريطانى والناس فى رشيد عند بدء حملة فريزر، وأخيرًا فى حملة الاحتلال البريطانى لمصر ١٨٨١.

طريق التجارة إلى الهند برًا، ثم طريق التجارة عبر قناة السويس كانا السبب الأساسى فى تزايد أهمية مصر الاستراتيجية، وفى خضوعها للاستعمار، وبطريق غير مباشر كانا السبب الأساسى فى اتصالها بالحضارة الغربية.

والطرق البحرية، وبالذات السيطرة على القنال الإنجليزى، كانت سببًا فى حروب مشتعلة بين الأسطولين الهولندى والبريطانى، وبعد هذه الحروب حصلت البحرية البريطانية على اسمها (البحرية الملكية البريطانية) فى عهد ويليام أوف أورانج زوج الملكة مارى (والذى تسمى جماعات الأورانج نفسها باسمه فى أيرلندا لأنه انتصر على الكاثوليك).

وتعتبر سفينة (نصر جلالتها HMS VICTORY) درة متحف البحرية الملكية فى بورتسموث، كما يعتبر الأدميرال نلسون هو نجم هذا المتحف بلا منازع.. بالضبط كما يعد اليخت المحروسة هو درة السفن الأثرية أو التاريخية فى مصر.

وفى هذا السياق حكى لى العميد بحرى محمد فريد جنينة رئيس مكتب الدفاع المصرى فى العاصمة البريطانية عن محاولة بريطانية لعرض اليخت المحروسة فى ميناء لندن على نهر التيمس.

وخلفية الموضوع ـ كما يوضح العميد جنينة ـ أن اليخت المحروسة تم بناؤه عام ١٨٦٥ فى لندن، والبريطانيون مولعون بكل ما ينتمى لما أبدعته الصناعة البريطانية فى أجيالها السابقة، وبخاصة أن «المحروسة» هو يخت فريد، ويعد معجزة تقنية وتحفة فى زمانه، وعليه فقد قام لورد دنمان المعروف باهتمامه الشديد باليخوت، والمساند لعدة أنساق للتعاون الاقتصادى المصرى/ البريطانى، بعرض فكرة فى فبراير الماضى على رئيس مكتب الدفاع المصرى، تقضى بأن تقوم مصر بإرسال اليخت المحروسة ليعرض فى ميناء لندن، كما أرسلته إلى أمريكا فى احتفالات العيد المائتين للاستقلال.

وعرض المحروسة فى لندن ـ من وجهة نظر لورد دنمان ـ سيؤدى إلى إشاعة مناخ اهتمام إضافى بكل ما هو مصرى، وبالذات فيما يتعلق بالاستثمار والسياحة، وخصوصًا أن هناك بعض الأفكار لعرض بعض قطع آثار مصرية أصلية على اليخت، بما يجعل وجوده ـ من جديد ـ فى بلاد الإنجليز مناسبة فريدة ليس لها شبيه، وتحتل مركز القلب من اهتمام بريطانيا والعالم.

وبالطبع، فإن الإمكانية التقنية لتنفيذ هذا المقترح، وبالذات قدرة اليخت على الإبحار إلى بريطانيا، أو تكلفة وإمكانية قطره إلى هنا، تظل موضوعًا فيه مناقشة وكلام، وقد طرح لورد دنمان الموضوع ـ كذلك ـ على وزير الاقتصاد د. يوسف بطرس غالى، وكان فى كل شروحه يتسلح بنسخة من كتاب قديم لتوم ميدج عن اليخوت الملكية فى العالم، وبينها المحروسة، الوحيد من نوعه الباقى على قيد

الحياة، وقيد الخدمة فى كل الدنيا.. ليظهر الأهمية العظمى لحدث عرضه فى بريطانيا، إذا أقرت الفكرة أو تمت الموافقة عليها.

. . . . . .

ربما إذا رأت هذه الفكرة النور يصبح المحروسة سفير تعاون ومحبة ومصالح مشتركة، باختلاف عما كانت سفن فريزر، أو نلسون، أو حملة ١٨٨١ تعنى لمصر!

وعلى أية حال، كانت تلك بعض خواطر عن الرموز التاريخية للأسطولين المصرى والبريطانى، أثارها فى ذهنى الظهور الرمزى لطابور عرض بحرى مصرى أمام القائد الأعلى للقوات المسلحة، كما أثارتها زيارتى لمتحف البحرية الملكية البريطانية فى بورتسموث، وأخيراً أثارها هذا الحوار مع العميد بحرى محمد فريد جنينة رئيس مكتب الدفاع المصرى فى يوم القوات البحرية المصرية.. يوم إغراق إيلات بأول صاروخ سطح / سطح فى تاريخ الحروب!!

**٩ نوفمبر ١٩٩٨**

## جلاسجو

فى اللحظات التاريخية القليلة التى تتحرر فيها مدن الشمال الإسكتلندية من وطأة الإحساس المر بعدم المساواة، فى تلقيها نصيب مستحق من الخدمات والإنفاق العام. . تجدها تبحث بوعى وإدراك جماعيين عن تحقيق (التميز)!!

التميز ـ ببساطة ـ يعنى إشباع تلك الغريزة القومية الجوعى لتأكيد الاختلاف منذ زمن بعيد.

والتميز ـ فى نظر الإسكتلنديين ـ هو فى ذاته هدف وغاية، وهو يعنى استخدام الوسائل المتاحة التى لا يسندها ثراء المخصصات أو الموازنات للضغط ـ كلما كان ذلك ممكنًا ـ على تحقيق التميز، وتأكيد الاختلاف!!

جالت تلك الأفكار برأسى وأنا أغرق فى إحساس تأمل طويل وصاخب داخل متحف الفن الحديث فى جلاسجو (بشارع الملكة، وهو بناء يسمى كانينجهام هاوس، وكان فى الأصل قصرًا لأحد بارونات الدخان). لقد قرر الإسكتلنديون أن يكون لديهم متحف للفنون التشكيلية، ولكن لأنهم لا يملكون البلايين التى تمكنهم من اقتناء الأعمال الكلاسيكية الكبرى على نطاق واسع، فقد قرروا أن ينشئوا متحفًا للفن المعاصر الحديث (بدأت القصة ـ كما يقول جوليان مبالدينج المدير السابق لمتاحف جلاسجو ـ بثلاثة ملايين جنيه تأسس بها صندوق تحت رعاية مجلس الفنون الإسكتلندى، ليقوم بشراء واقتناء الأعمال الفنية اللازمة لتأسيس ذلك المتحف من فوائد المبلغ).

ربما يكون ذلك النفوذ الفرنسى الثقافى والمزاجى القديم على إسكتلندا سببًا ملهمًا لهذا الرهط من المؤسسات الثقافية والأفراد المبدعين أن يقيموا متحفًا للفن الحديث، على غرار المتحف/ المرجعية، الكائن فى باريس لهذا اللون من الفنون.

ولكن المؤكد أن إقامة ذلك المتحف إنما جاءت تأكيدًا وتعميقًا لثقافة التميز والاختلاف، التى تمثل هاجسًا مزمنًا فى العقل والوجدان الإسكتلندى، والتى أخذت ـ فى هذا السياق ـ نسقين رئيسيين، أحدهما أن تصبح جلاسجو ـ فى ذاتها ـ إحدى عواصم العالم الثقافية والفنية الكبرى، والثانى أن يصبح متحفها للفن الحديث، تحفة ليس لها نظير.

ولكن ما هو الفن الحديث.. ولماذا تريد جلاسجو أن تتميز به؟!

الإجابة على ذلك إنما تكمن فى الجدلية الحاصلة بين مقولة جون اسكين ناقد فنون العصر الفيكتورى الذى يرى أن: (وظيفة الفنان هى أن يرى، ويحس)، وبين معطيات وطبيعة العصر الحديث التى تضيف إلى وظيفة الفنان: «استخدام لغة تعبيرية تمكن الآخرين أن يروا ما أحس به الفنان»!!

وربما كانت تلك الفكرة هى التى تحقق التميز للمتحف الإسكتلندى، ليس فقط على غيره من المتاحف، ولكن ـ ربما ـ على وسائل الاتصال الجماهيرى، أو أدوات الإعلام الحديثة.

ولا يستطيع أحد هنا أن يدعى أن هذا الفن الحديث لا يقول شيئًا، أو أنه يعنى (أى شىء)، ومن ثم فإن وسائل الإعلام الحديثة أكثر تأثيرًا، ذلك أن الفن ـ بطبيعته ـ يتضمن أحاسيس لا يمكن أن تحيط بها، أو تعكسها التصريحات التى تحفل بها وسائل الإعلام وتعج.

ومن هنا فإن الفن لابد أن يعنى شيئًا، وهذا (الشىء) الذى يعنيه الفن يجب أن تستخدم فيه لغة تعبيرية تمكن الآخرين من أن يروا ما أحس به الفنان، وهنا نقطة التميز ـ الأخرى ـ الكبرى للفن على الميديا!!

. . . . . .

لقد توقفت طويلاً جدًا أمام أعمالٍ ثلاثة فى متحف جلاسجو للفن

الحديث.. وربما كان التخصص الساخر (بالرسم أو الدراسة) سببًا فى انحيازاتى إليها.

أحدها هو مجموعة بيريل كوك، وهى شديدة الشبه بالرسوم التى احتوتها «نيويوركر» بين الحربين، والتى طغى فيها تأثير مدارس الفن الحديث الناشئة على الرسوم الكاريكاتورية أو الساخرة.

وثانيها هو تركيب بنائى لفنان من أمريكا اللاتينية يسمى الخطايا السبع، وقد نزع فيه إلى الخلط ما بين المال والجنس، والقتل، والهياكل العظمية، والسحر، ليصور عالمًا وحشيًا، وموحشًا، عماده تشخيص عدة مواقف «جروتسكية» تقف فى منطقة وسط بين النحت الساخر والتركيب التشكيلى باستخدام خامات متعددة (بلاستيك + قماش + خشب)!!

أما ثالثها، فهو ينتمى مباشرة إلى النحت الساخر، ويصور سيدة سمينة عجوزًا عارية، تقف أمام منضدة كواء لتكوى جلدها بمكواة كهربائية، أو بالأحرى تفرده!!

والعمل ـ فى ذاته ـ نكتة تربك المنطق وتتجاوز المعقول، وربما كانت هذه النكتة ـ فى ذاتها ـ هى الإحساس الذى يريد الفنان عبر اللغة التعبيرية المستخدمة أن ينقله إلى المتفرج، وهو ـ هنا ـ الذى لا يمكن وصفه بأنه (أى شىء)، ولكن يمكن الإشارة إليه بأنه (شىء بالتحديد) .. وهذا (الشىء بالتحديد) قد يكون إحساسًا خالصًا بالنزوع إلى السخرية من الآخر، أو من الذات، أو من الشخص الذى يشاركنا ضحكنا، دون أن يعرف السبب الذى من أجله نضحك!!!

.....

العجز الإنسانى فى مواجهة معطيات المحيط، قد يكون مؤثرًا دالاً على السخرية، وقد يكون سببًا مباشرًا فيها.. هو حالة تبدو فيها القدرة الإنسانية مهزومة فى محاولتها بناء اليوطوبيات، وتأسيس الأحلام!

وأظن أن معظم قطع الفن الحديث تبلور نفس هذا المفهوم بطرق ومداخل مختلفة إذ أنها - بحكم التعريف - تعاصر أزمانًا أصبحت تحدياتها الكوكبية، البيئية، أو العسكرية، أو الميكانيكية، عامل ضغط قاهر - باستمرار - على الإرادة، أو الإحساس الإنسانى.

ومن ثم فإننى لا أستطيع التخلى عن فكرتى المزمنة بأن معظم أعمال الفن الحديث تحتوى إحساسًا ضمنيًا داخليًا بالفكاهة أو بالسخرية، لأنها تقوم على فكرة تهشيم العالم الذى لا تستطيع - ماديًا - مواجهته أو تغييره، وبناء، أو إعادة بناء وتركيب هذا العالم - مجازيًا أو خياليًا - على النحو الذى يراه المبدع أو الفنان.

وبالطبع إذا لم تكن قادرًا على تهشيم العالم بشكل مباشر ومادى، فأنت تسخر من هذا العالم وتربك الأبنية المنطقية والأعمدة الفلسفية التى يقوم عليها، بالضبط مثلما كان يفعل الإنسان الأول حين يرسم فرائسه على جدران الكهف بشكل مبالغ فيه، ويصور نفسه يخضعها ويذلها قبل أن يخرج لاصطيادها، حتى يرفع من معنوياته، ويتشجع، ويتسلح إزاءها بطاقة معنوية كبيرة!!!

السخرية هى المتحدى الأول للقهر!

والسخرية هى الطاقة الضمنية الأولى فى أعمال الفن التشكيلى الحديثة والمعاصرة.

ربما لهذا السبب كانت رموز الأنظمة التسلطية (مثل هتلر فى نظامه النازى)، ورموز الأنظمة الشمولية (مثل خروشوف فى نظامه الشيوعى) لا يحبون الفن الحديث، ويتبنون مقولات صاخبة فى انتقاده ورفضه، بل ويذهبون إلى تعارضه مع أسس النظرية أو الفلسفة التى تنبنى عليها مثل هذه النظم أو تلك.

إنه «يسخر»، و«يتهكم»، و«ينتقص»، و«يخرج لسانه»، و«يرفض الهندسة الاجتماعية والسياسية فى الغرف المغلقة»، و«يتمرد على الخضوع للصيغ الميكانيكية الجاهزة».

هذه المعانى ـ جميعًا ـ هى ما أحسست به وأنا أتأمل احتضان جلاسجو لمتحف للفن الحديث، وهو الذى قد يعنى ـ ضمن ما يعنى ـ تحدى الصيغة غير العادلة ـ من وجهة نظرهم ـ التى تربطهم بمن يريدون أن يفصحوا عن أكبر قدر من (التميز) و(الاختلاف) إزاءه!!

**٧ ديسمبر ١٩٩٨**

obeikandl.com